تأملات

في بناء الوعي الحضاري

الطبعة الأولى

1446 هـ

2024 م

اسم الكتاب: تأملات في بناء الوعي الحضاري

التأليف: بدران بن لحسن

موضوع الكتاب: فكر إسلامي

عدد الصفحات: 216 صفحة

عدد الملازم: 13.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 24x17

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2024-25431

الترقيم الدولي: 978-977-8796-08-7

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

01152806533_01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

تأملات
في بناء الوعي الحضاري

تأليف

بدران بن لحسن

دار البشير

تقديم

بسم الله والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد؛

تعيش أمتنا اليوم في معترك تحولات حضارية كبرى، وهي في أمس الحاجة على وعي يواكب هذه التحولات، من اجل تحقيق بنائها الحضاري المنشود، وتبوء مكانتها اللائقة بها أمة الشهادة على بقية الأمم.

ولهذا جاء هذا الكتاب يتناول موضوعات متعددة لكن يجمع بينها خيط ناظم واحد؛ هو النظر في ما ينبغي بناءه من وعي حضاري، يتجاوز الطروحات التجزيئية، ويحقق التكامل في الرؤية وفي المنهج، ويقدم بديلا فكريا وقيميا يساعد الشباب المسلم على الإجابة عن تساؤلات العصر بأصالة وفعالية، ويتقدم في مختلف ورشات صناعة التاريخ متسلحا بوعي يحدد الرؤية ويصوغ المنهج ويحقق البناء الذي تنشده امتنا عبر أجيالها منذ بداية حركات الإصلاح والتجديد في عالمنا الإسلامي.

ولذلك فإن مقالات هذا الكتاب تأخذ بعين الاعتبار أهمية التأصيل الذي يربط الأفكار ويصوغ الوعي وفق النماذج الاصلية التي بنيت عليها حضارتنا الإسلامية، وفي الوقت نفسه أهمية الفعالية في المثاقفة الإيجابية مع الواقع الحضاري اليوم دون نظرة حدية ودون ذوبان، ولكن بتوازن

يحقق الوسطية التي تتميز بها الرؤية الإسلامية للكون والحياة والانسان والتاريخ، من اجل رؤية ترى الإيجابي فتثمنه وتستثمره، وترى السلبي فتنتقده وتتفاداه، بما يحقق الاستقلالية في صياغة تجربتنا الحضارية المعاصرة التي لا تهاجر في التاريخ وتتغنى بأمجاده، ولا يسكنها شعور النقص وعقدة الدونية أمام المنجز الحضاري الغربي، مبتعدة عن النظرة الجزئية، متمسكة بالنظرة الكلية التكاملية، تحقيقا لوعي حضاري ينطلق بنا نحو المستقبل باقتدار.

والله من وراء القصد وهو الهادي على سواء السبيل.

بدران مسعود بن لحسن

الجزائر في ١١ صفر ١٤٤٦هـ

١٥ أغسطس ٢٠٢٤م

تقديم الطبعة الأولى

الحمد لله والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد؛

هذه مجموعة مقالات كتبت في مناسبات عديدة، وفي أزمنة متفرقة، حاول كاتبها أن يقارب الموضوعات وينظر إليها من منظور حضاري، وهدف منها أن يؤسس لوعي سنني في تناول قضايانا الملحّة المتعلقة بالدين، والقرآن، والانسان، والحضارة. لعلنا ننتقل في وعينا إلى تناول قضايانا من منظور سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتاريخ، ونخرج من التناول الجزئي والعفوي والعشوائي إلى التناول الكلي.

هي مقالات يحاول كاتبها أن يفتح ذهنه وصدره لمخاطبة جيل أمتنا الحاضر وجيلها المستقبلي، يحاول أن يوصل له مفاهيم، تساعده على تجاوز التراوح والتردد في الفهم، والتبطل في الأداء، لعله يفتح ثغرة في الطريق المسدود، لينتقل بنا إلى آفاق الفعل والفكرة التي لها كثافة الواقع، وإلى الفعل الواقعي الذي يحمل أفق الفكرة، وإلى بذل الوسع فكرا وعملا، نظرا وسلوكا، حتى يستعيد دوره الذي اختاره الله له؛ خليفة في الارض، يعبد الله ويعمر الأرض.

إنها مقالات تحاول أن تستعيد للقرآن مركزيته في صناعة الوعي، وتوجه نظر الشباب إلى أن في القرآن يكمن منبع المفاهيم والتصورات والقيم، وفي سنة النبي وسيرته ﷺ تكمن السننية والنموذجية في القول والفعل، والعمل والسلوك، وأن هذا الدين جاء ليقود الحياة، وليبنيها على أسس الوحي المنزل من الله تعالى، كما يبنيها على اكتشاف وتسخير سنن الله تعالى في الوجود؛ في الأنفس وفي التاريخ وفي الآفاق.

إنها مقالات حاول كاتبها أن يفتح أذهان الشباب ويدعوهم لتناول موضوعاتهم وقضاياهم بمنظور تكاملي، لا يفرق بين سنن الكتاب وسنن الكون، لأن الله تعالى الذي أنزل الكتاب هو الذي خلق الكون، وهو من خلق الإنسان واستخلفه في الكون وزوده بهداية الدين، عبر سلسلة الأنبياء؛ منذ أول نبي إلى آخرهم عليهم الصلاة والسلام.

ولهذا، فإن هذه المقالات، ليست دروسا علمية أكاديمية بمعناها المدرسي الشكلي، ولكنها محاورات تنبع من قلب كاتبها وعقله، متأملا كتاب الله وسنة نبيه مفتقرا إليهما، ومستنطقا سنن الأفاق والأنفس والتاريخ التي تبني الأمم والحضارات وتهدمها، لعل من أجيالنا الحاضرة من يأخذ المبادرة، ويستعيد لأمتنا مجدها بأداء يقوم على العلم والفعالية المطلوبة التي تحتاجها الأمم في منعرجاتها الحضارية الحاسمة.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الحاجة إلى استعادة مركزية القرآن في صناعة الوعي

هـذه الأمة أنشـأها القرآن، ولا يمكن أن تصلح بدونه، فكـما صلح به أولها، تصلح به أجيالهـا المتأخـرة والقادمة. أو بتعبير مالك بن نبي، فـإن نهضة هذه الأمة لا تتحقق إلا إذا تحققت بشروط ميلادها الأول[١]، وميلادها الأول تحقق في ضوء القرآن الكريم وهدايته. ولهذا علينا أن نعيد الاعتبار للقرآن، والسـنة تبعا لذلك، ليكون مركزيا في صناعة وعينا.

علينـا أن نجعـل مـن القـرآن مصـدرا لتشـكيل التصـورات والمفاهيـم والقيـم كليهـا وجزئيهـا، ومنبعـا لبنـاء مفاهيـم المسـلم ومناهجـه في الديـن والعلـم والحيـاة، ومنبـع اسـتمداد لا ينضـب، لدراسـة مختلـف الظواهـر والقضايـا والأفـكار والأحـداث، ومنـه نسـتمد الرؤيـة، والمنهـج.

١. رؤية تجعل القرآن مركز اهتمام:

إنهـا رؤيـة تجعـل القـرآن مركـز اهتـمام شـامل ومتعـدد الجوانـب. لأن القـرآن - كـما يقـول العلامـة ابـن عاشـور[٢]- جامـع لمصالـح الدنيـا والديـن، وموثـقٌ شـديدُ العـرى مـن الحـق المتـين، والحـاوي لكليـات العلـوم ومعاقـد اسـتنباطها، والآخـذ قـوس البلاغـة مـن محـل نياطهـا، طمعـا في بيـان نكـت مـن العلـم وكليـات مـن التشريـع، وتفاصيـل مـن مـكارم الأخـلاق، كان يلـوح أنمـوذج مـن جميعهـا في خـلال تدبـره، أو مطالعـة كلام مفسِّره.

(١) مالـك بـن نبـي، شروط النهضـة، ترجمـة: عمـر كامـل مسـقاوي وعبـد الصبـور شـاهين، دمشـق: دار الفكر، ١٤٠٦هتـم ١٩٨٦م، ص٢٥.

(٢) محمـد الطاهـر بـن عاشـور، تفسـير التحريـر والتنويـر، تونـس: دار سـحنون للنـشر والتوزيـع، ١٩٩٧م، مـج١، ج١، ص٥.

وهو كتاب الله الجامع لخيري الدنيا والآخرة، ومنبع الحق والهداية، ومصدر العلوم على تنوعها، ومستمد الكليات في التشريع وفي العلم والأخلاق. وبالنظر في القرآن وتدبره نولد منه نماذج معرفية ومنهجية وعملية.

فهو ليس كتابا دينيا بالمفهوم الضيق للدين، كما يسوق له الخطاب الحداثي الحديث والمعاصر، وإنما هو كتاب هداية ورحمة وتبيان لكل شيء. ذلك أنه منبع للمعاني والمفاهيم والتصورات، والقيم والآداب، والأحكام والقصص، ومقاصده شاملة لمختلف جوانب الفكر والعمل، ومبثوثة في كل آياته[١].

٢. القرآن مركز تشكيل التصورات:

وينبغي أن يأخذ القرآن مركز الاهتمام والاشتغال في تشكيل التصورات، وتحديد الرؤية، وبناء المناهج والمفاهيم، وفي مباشرة عملية التجديد الفكري والعلمي، والإصلاح التربوي والاجتماعي، بغية "التوصل إلى الوعي الحضاري العمراني بالقرآن"[٢]. لأن القرآن منبع الهداية ومصدر الصواب لهذه الأمة؛ منه يتكون الإنسان السوي والمجتمع السوي في كل زمان ومكان.

وعندما يتعامل المسلم مع القرآن والسنة تعاملاً حسناً، فإنه يصل إلى فهم حسن للقضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان في كل مكان؛ قضية الخالق سبحانه، والخلق والكون والحياة والهدف منها، ودور الإنسان في هذه الحياة، ومصيره بعدها، ويصل المسلم أيضا إلى فهم حسن للمشكلات الحياتية والحضارية التي يعاني منها العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر[٣].

(١) المصدر نفسه، مج١، ج١، ص٨.

(٢) محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة أجراها: عمر عبيد حسنة، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.

(٣) صلاح إسماعيل، كيف نتعامل مع القرآن والسنة، انظر:
نصر محمد عارف، قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر. هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ١٦، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٨١.

٣. القرآن مفتوح ميسر للتدبر:

إن القرآن الذي نزل إلى العالمين على امتداد الزمان والمكان، لابد وأن يبقى مفتوحاً للأجيال تنهل منه على اختلاف بيئاتها وأزمانها، وإن من الأخطاء الكبيرة وبدايات الانحراف في الفهم والاستمداد، أن نعمد إلى محاصرة الوحي بأفهامنا، فلا نسمح له بالامتداد إلا بمقدار ما تسمح به عقولنا ومداركنا، فنحرم عقولا أخرى من حظها في الفهم، ونصادر حقها في الرأي والاجتهاد[١].

وعلينا أن نعمل على أن يسترجع القرآن مكانه؛ تدبراً وتفكراً واستنباطاً واستقراءً، وذلك يمثل استدعاءً للقرآن العظيم للساحة الثقافية، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينه وبين العقل المسلم، وجعله المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر، كما كان كذلك عند السلف، يرجع إليه ليستقي منه العلم والمعرفة السليمة في نظرته إلى الإنسان والحياة والوجود، في الفطرة الإنسانية والاجتماعية، وفي قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات والنظم[٢].

فالقرآن "أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم. قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩]. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية."[٣]

٤. القرآن مركزي ومهيمن على كل منشط:

ومعرفيا ومنهجيا، ينبغي أن نفك الارتباط بين القرآن وبين بعض المحاولات التي أغرقته في تصورات لاهوتية كلامية، جعلت منه كتاباً طقوسياً بعيداً عن

(١) سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٧م، ص١١.

(٢) الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، مرجع سابق، ص١. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٨.

صياغة الحياة، لنسترجع المبادرة بالقرآن ونستدعيه لصياغة تصور جديد، هذا التصور هو عدّه أن مدار مقاصد القرآن هو الإنسان وصلاح الإنسان.

إن كل شؤون الإنسان يشملها القرآن باستيعابه الشامل لمختلف دوائر حياة الإنسان، ولمختلف أبعاد شخصيته. وعليه، فإننا بتأملنا لمختلف الدوائر والأبعاد ندرك أن القرآن يكون منبعا لنا في تأسيس مختلف المعارف المتعلقة بصلاح الإنسان؛ فردا وجماعة وعمرانا[١].

وهذا يجعل من القرآن مركزيا ومهيمنا في التأسيس لعلم العقيدة، وعلم الأخلاق، وعلم الأدب وتهذيب النفوس، ومناهج التفكير، وعلم النفس، وعلم الشعائر أو العبادات، وعلم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية، وفي تأسيس الفقه الجماعي، أو فقه الشؤون العامة التي تهتم بالوجود الاجتماعي للفرد في وسط جماعة؛ أي فقه الشأن العام[٢]، وعلم العمران وعلم الاجتماع.

٥. القرآن منبع للتحضر:

وهذا بدوره يجعل من القرآن منبعا للعلوم الاجتماعية والعمرانية، ومختلف حقول المعرفة التي تؤسس للتحضر الإنساني والعمران البشري. وهو تأكيد للخط الخلدوني في التركيز على فقه العمران والاجتماع، وتأسيس مهم للبحث الاجتماعي على أسس قرآنية تستدعي القرآن مؤسسا وموجها للنظر الاجتماعي.

فصلاح الإنسان في دوائره الفردية والجماعية والعمرانية هو مقصد القرآن الأعلى. وهذا الفهم للقرآن والنظر إليه بهذه المركزية وهذه الشمولية يجعل من القرآن مرجعا يستقى منه، لا مرجعا للتبرير للآراء الجزئية، ويجعلنا نفتقر إلى القرآن ليعطينها من جواهره المكنونة ويحدد لنا المقاصد التي في ضوئها

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٨.

(٢) أبو سليمان، عبد الحميد. أزمة العقل المسلم، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٦-٨٣.

نجتهد ونعمل، ولا يفتقر إلينا القرآن للاحتجاج لها والبرهنة على صحته من خلال ما أنجزه الإنسان، أو نجعل منه مرجع تسويغ لآرائنا ومقاصدنا بعد أن نكون قد حددنها بعيدا عن القرآن[١].

٦. الافتقار المعرفي للقرآن:

ولذلك على من أراد فهم القرآن وتفسيره والأخذ منه أن يخضع للقرآن ومقاصده، ليستطيع أن ينتفع به، لا أن يحدد مقاصد لنفسه، ثم يأتي للقرآن طالباً التبرير له، فيقع في التجزيء. ولهذا، فإن على متدبر القرآن أن "يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن"[٢]، التي توجه منهجيا التأسيس لعلوم ومعارف يتوسل بها إلى تحقيق المقصد الأعلى، وتشكل المحاور الكبرى التي تحوي مختلف المعارف التي تأتي من فيض القرآن وتتصل به من قريب أو من بعيد.

٧. القرآن منبع العلوم والمرجع الأعلى:

وهذا ما يؤكد على صلة مختلف العلوم بالقرآن الكريم؛ ذلك أنه ليس كتابا للعلوم بالمعنى الأكاديمي، وإنما القرآن ينظم علاقته بالعلوم في مستويات متعددة؛ فمنها ما هو مستمد مباشرة من القرآن كتاريخ الأنبياء والأمم وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة، ومنها علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق وبقية علوم الطبيعة.

ونفهم من هذا كله أن القرآن يشكل مرجعية للعلوم الدينية وغير الدينية، ويقوم بدور مرجعي في هندسة بناء المعرفة، ليخرجها من ذلك التشظي الذي نشاهده في واقعنا اليوم، ويخرجها من والإشكالات المتعددة الناتجة عن استبعاد

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٩.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٩.

القـرآن الكريـم عـن مسـار إنتـاج المعرفـة[١].

وختامـا نقـول إن العمـل عـلى اسـتعادة القـرآن مركزيتـه في صناعـة الوعـي، يحتـاج إلى جهـود متظافـرة مـن أبنـاء الامـة، لنصلـح بـه كـما صلـح بـه أول الأمـة، ولنحقـق بـه الهدايـة والرشـد والريـادة.

غـير أن مـا ينبغـي التأكيـد عليـه أن ذكرنا للقـرآن ومرجعيتـه وتشـكيله للتصورات واسـتمداد المعـارف منـه لا يعنـي معرفيـا ومنهجيـا اسـتبعاد السـنة كـما يتبـادر إلى ذهـن مـن لا ينظـر إلى القـرآن بوصفـه المصـدر الأعـلى وانضـواء السـنة الصحيحـة تحتـه وتبعيتهـا لـه في كليتهـا، ذلـك أن مـا مـن أمـر أتـت بـه السـنة في تفاصيلهـا إلا ولـه أصـل عـام في القـرآن. ولعـل أهـم مـا يمكـن الاسـتناد إليـه هنـا هـو أن اتبـاع النبـي ﷺ فيـما ثبتـت صحتـه عنـه، مأمـور بـه مـن القـرآن ذاتـه. فـلا تسـتبعد السـنة الصحيحـة أبـدا في وعينـا وفي رؤيتنـا وفي منهجنـا لتنـاول القـرآن الكريـم ومرجعتـه.

***

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٤٥.

مركزية القرآن في إنتاج المعرفة

القرآن كتاب الله الجامع لمصالح الدنيا والدين، وموثق شديد العرى من الحق المتين، والحاوي لكليات العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذ قوس البلاغة من محل نياطها، طمعا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبره، أو مطالعة كلام مفسِّره[1].

فالقرآن كتاب الله الجامع لخيري الدنيا والآخرة، وهو منبع الحق والهداية، وهو مصدر العلوم على تنوعها، وهو مستمد الكليات في التشريع وفي العلم والأخلاق. ويمكن بالنظر في القرآن وتدبره أن نولد منه نماذج معرفية ومنهجية وعملية؛ أي أن القرآن مصدر لتشكيل التصورات والمفاهيم والقيم كليها وجزئيها.

إنها رؤية تستمد من القرآن ذاته هذه الرؤية، وتستمد المنهج، وتحدد المقاصد التي يتناولها القرآن، ومختلف العلوم التي تستمد من القرآن الكريم إما بطريق مباشر؛ أي ما يتعلق منها بسنن الهداية، وإما بطريق غير مباشر؛ أي سنن الأفاق والأنفس والتاريخ وسنن التأييد.

إنها رؤية جديدة تجعل القرآن مركز اهتمام شامل ومتعدد الجوانب. فهو ليس كتابا دينيا بالمفهوم الضيق للدين، وإنما هو كتاب هداية ورحمة وتبيان لكل شيء. ذلك أن القرآن منبع للمعاني والمفاهيم والتصورات، والقيم

(١) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، مج١، ج١، ص٥.

والآداب، والأحكام والقصص، ومقاصده شاملة لمختلف جوانب الفكر والعمل، ومبثوثة في كل آياته[١]. وهذه الرؤية للقرآن طالما افتقدها العقل المسلم في عصوره المتأخرة منذ عصر ما بعد الموحدين - بتعبير مالك بن نبي.

ومركزية القرآن في فكر العلماء المجددين دائما كانت لها الأولوية. ولعلنا لو رجعنا إلى العلامة ابن باديس، وإلى ابن عاشور مثلا، سنجد ان القرآن شكّل محورا أساسيا وبعدا هاما في فكرهم.

وما قاموا به يعد جهدا فكريا وعلميا ينطلق من رؤية إصلاحية تحاول إعادة الاعتبار للقرآن الكريم في تشكيل المعارف وبناء الفكر وصياغة المفاهيم من أجل تحقيق البناء النهضوي الذي سعى إليه هؤلاء الأعلام.

ولو أخذنا ابن عاشور مثالاً على ما قلناه، لوجدنا القرآن يحتل محوراً مركزيا في فكر ابن عاشور ومصدراً لمختلف أفكاره واجتهاداته في الفقه، والاجتماع، والتربية، والعمران، والإصلاح.

بل لا نبالغ إذا قلنا إن القرآن بالنسبة لابن عاشور يأخذ مركز الاهتمام والاشتغال في تشكيل التصورات، وتحديد الرؤية، وبناء المناهج والمفاهيم، وفي مباشرة عملية التجديد الفكري والعلمي، والإصلاح التربوي والاجتماعي. ولهذا حق أن يعدّ رائداً في العمل على "التوصل إلى الوعي الحضاري العمراني بالقرآن"[٢].

فالقرآن الكريم في سياق فكر ابن عاشور هو منبع الهداية ومصدر الصواب لهذه الأمة الإسلامية، منه يتكون الإنسان السوي والمجتمع السوي في كل زمان ومكان. وعندما يتعامل المسلم مع القرآن والسنة تعاملاً حسناً، فإنه يصل إلى فهم حسن للقضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان في كل مكان، وهي قضية

(١) المرجع السابق، مج١، ج١، ص٨.

(٢) محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، مدارسة أجراها: عمر عبيد حسنة، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.

الخالق سبحانه، والخلق والكون والحياة والهدف منها، ودور الإنسان في هذه الحياة، ومصيره بعدها، ويصل المسلم أيضا إلى فهم حسن للمشكلات الحياتية والحضارية التي يعاني منها العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر[١].

ولذلك فإنه يحاول الرجوع مباشرة إلى القرآن الكريم من أجل تشكيل التصورات وتحصيل الفهم واستنباط المقاصد، دون الحاجة المعرفية أو المنهجية إلى الرجوع إلى التفاسير السابقة[٢] التي صارت حاجزا بيننا وبين القرآن، ولكن في الوقت نفسه دون إهمال لها، بوصفها تراثاً فكرياً ناتجاً عن تعامل مع القرآن، وفق سقف معرفي معين وفي مرحلة معينة، واستجابة لدواعي وظروف قد تختلف وقد تشابه ظروفنا.

لذلك، ومنذ فاتحة تفسيره "التحرير والتنوير" أيضاً، لا يجد العلامة ابن عاشور -رحمة الله عليه- غضاضة في الإعلان عن رأيه في أنه غير ملزم بالأخذ بالتفاسير السابقة، كما أنه غير مدع لتركها كلها، بل يقف "موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وتارة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد"[٣].

فكأن ابن عاشور يقول لنا إن القرآن الذي نزل إلى العالمين وإلى الناس كافة على امتداد الزمان والمكان، لابد وأن يبقى مفتوحاً للأجيال تنهل منه على اختلاف بيئاتها وأزمانها، وإن من الأخطاء الكبيرة وبدايات الانحراف في الفهم والاستمداد، أن نعمد إلى محاصرة الوحي بأفهامنا، فلا نسمح له بالامتداد إلا

(١) صلاح إسماعيل، كيف نتعامل مع القرآن والسنة، انظر:
نصر محمد عارف، قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر. هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ١٦، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٨١.

(٢) طبعا الأمر هنا لا يتعلق بذلك الموقف المتطرف من التراث الذي تبناه الحداثيون بقولهم بعدم الحاجة إلى التراث مطلقا، وضرورة إلغائه وتجاوزه. فإن ابن عاشور ليس من هذا الرأي، بل يرى ضرورة فهم التراث والاستفادة منه على أن يشكل رافدا معرفيا وخبرة من خبرات الأمة في التعامل مع القرآن الكريم، ولا يكون عائقا معرفيا ولا منهجيا لفهم القرآن والرجوع إليه.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٧.

بمقدار ما تسمح به عقولنا ومداركنا، فنحرم عقولا أخرى من حظها في الفهم، ونصادر حقها في الرأي والاجتهاد[١].

ليس ذلك فحسب، بل يبدو العلامة ابن عاشور منشغلا بهم الصلاح والإصلاح في الشأن الفردي والشأن العام، وهو في ذلك يسلك نهج المدرسة الإصلاحية منذ الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما من رواد المدرسة الإصلاحية التي اشتغلت على أن يسترجع القرآن دوره ومكانه.

إن العمل الذي قام به ابن عاشور في تفسيره، وفي بقية مؤلفاته وهو يتعامل مع القرآن تدبراً وتفكراً واستنباطاً واستقراءً هو بمثابة استدعاء القرآن العظيم للساحة الثقافية الإسلامية، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينه وبين العقل المسلم، وجعله المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر، كما كان كذلك عند السلف، يرجع إليه ليستقي منه العلم والمعرفة الدقيقة السليمة في نظرته إلى الإنسان والحياة والوجود، في الفطرة الإنسانية والاجتماعية، وفي قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والعلاقات والنظم[٢].

فالقرآن الكريم "أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم. قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية"[٣].

***

(١) سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٧م، ص١١.

(٢) الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، مرجع سابق، ص١. من تصدير الشيخ طه جابر العلواني.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٨.

القرآن ودوائر الإصلاح

إن المتأمل في تفسير ابن عاشور وفي بقية كتبه يدرك أنه حاول أن يفك الارتباط بينه وبين بعض التصورات التي أغرقت القرآن في تصورات لاهوتية كلامية، جعلت منه كتاباً طقوسياً بعيداً عن صياغة الحياة، فأراد أن يسترجع المبادرة بالقرآن ويستدعيه لصياغة تصور جديد يجعل مقاصد القرآن تتمحور على الإنسان وصلاح الإنسان.

وإن تأكيده على أن أحكام الشريعة الإسلامية، من خلال النظر في القرآن الكريم، يتبين أنها في أحكامها؛ الاعتقادية والعملية، تصب كلها في مقصد تحقيق صلاح الإنسان بأبعاده الثلاثة؛ الفردي والجماعي والعمراني، وذلك من خلال ضبط نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح الإنسان في دوائر وجوده الثلاثة السالفة الذكر.[1]

وبما أن صلاح الإنسان هو المقصد الأعلى للقرآن، فإن كل شؤون الإنسان يشملها القرآن بتوجيهه الشامل لمختلف دوائر حياة الإنسان، ولمختلف أبعاد شخصيته. وعليه، فإننا بتأملنا لمختلف الدوائر والأبعاد ندرك أن القرآن يكون منبعا لنا في تأسيس مختلف المعارف المتعلقة بصلاح الإنسان؛ فردا وجماعة وعمرانا.

أ. الصلاح الفردي:

فالصلاح الفردي يقتضي تهذيب النفس وتزكيتها، وعلى رأس ذلك صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة،

(١) الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ص٢٢٨.

وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر.[١] وهذا يجعل من القرآن مركزيا ومهيمنا في التأسيس لعلم العقيدة، وعلم الأخلاق، وعلم الأدب وتهذيب النفوس، ومناهج التفكير، وعلم النفس، وعلم الشعائر أو العبادات.

ب. الصلاح الجماعي:

وأما الصلاح الجماعي، فيحصل بالصلاح الفردي أولاً، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه. غير أن هذا لا يتم وحده على المستوى الفردي، بل يحصل الصلاح الجماعي من خلال ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض. وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.[٢] وفي هذا اتجاه إلى تأسيس الفقه الجماعي، أو فقه الشؤون العامة التي تهتم بالوجود الاجتماعي للفرد في وسط جماعة، وفي هذا محاولة لاستدراك ضمور الفقه في هذا الجانب؛ أي فقه الشأن العام.[٣]

ج. الصلاح العمراني:

وأما الصلاح العمراني، فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم، لحفظ مصالح الجميع، ورعاية المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع.[٤] وهذا بدوره يجعل من القرآن منبعا للعلوم الاجتماعية والعمرانية، ومختلف حقول المعرفة التي تؤسس للتحضر الإنساني والعمران البشري. وهو تأكيد للخط الخلدوني في

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٣٨.

(٢) المرجع السابق، مج١، ج١، ص٣٨.

(٣) عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٧٦-٨٣.

(٤) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١، ص٣٨.

التركيز على فقه العمران والاجتماع، وتأسيس مهم للبحث الاجتماعي على أسس قرآنية تستدعي القرآن مؤسسا وموجها للنظر الاجتماعي.

فصلاح الإنسان في دوائره الفردية والجماعية والعمرانية هو مقصد القرآن الأعلى. وهذا الفهم للقرآن والنظر إليه بهذه المركزية وهذه الشمولية يجعل من القرآن مرجعا يستقى منه، لا مرجعا للتبرير للآراء الجزئية.

وكأن ابن عاشور يريد منا أن نفتقر إلى القرآن ليعطينها من جواهره المكنونة ويحدد لنا المقاصد التي في ضوئها نجتهد ونعمل، ولا يفتقر إلينا القرآن للاحتجاج لها والبرهنة على صحته من خلال ما أنجزه الإنسان، أو نجعل منه مرجع تسويغ لآرائنا ومقاصدنا بعد أن نكون قد حددنها بعيدا عن القرآن.

ولذلك على من أراد فهم القرآن وتفسيره والأخذ منه أن يخضع للقرآن ومقاصده، ليستطيع أن ينتفع به، لا أن يحدد مقاصد لنفسه، ثم يأتي للقرآن طالباً التبرير له، فيقع في التجزيء. ولهذا، فإن على متدبر القرآن أن "يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن."[1]

هذه المقاصد الأصلية تدور في فلك المقصد الأعلى الذي هو صلاح الإنسان، وتوجه منهجيا التأسيس لعلوم ومعارف يتوسل بها إلى تحقيق المقصد الأعلى، وتشكل المحاور الكبرى التي تحوي مختلف المعارف التي تأتي من فيض القرآن وتتصل به من قريب أو من بعيد.

***

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٩.

المحاور الثمانية لعلوم صلاح الإنسان في القرآن

في المقدمة الرابعة من "التحرير والتنوير"، يتناول ابن عاشور المحاور (المقاصد) الثمانية التي تمثل نواظم منهجية للمعرفة والفكر والعمل والإصلاح، وتحكم التعامل مع القرآن الكريم، وتوجه النظر في كلياته وجزئياته، تحقيقا لصلاح الإنسان. ويتطلب كل محور علما أو علوما ومعارف تخدمه وتحقق مقاصده.

١. المحاور الثمانية للعلوم:

وبالاستقراء -كما يذهب إلى ذلك ابن عاشور- والمحاور الثمانية هي:

أ. **إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح**. وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق.

ب. **تهذيب الأخلاق**: ذلك أن رسالة القرآن ذاته رسالة أخلاقية كما جاء في الحديث.[1] بل إن القرآن امتدح النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

(١) جاء في الحديث "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وفي رواية "صالح الأخلاق". رواه البخاري في "الأدب المفرد" (رقم ٢٧٣)، و"التاريخ الكبير" (٤/ ١/ ١٨٨)، وابن سعد في: "الطبقات" (١/ ١٩٢)، والحاكم (٢/ ١٩٢)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٦/ ٢٦٧/ ١) من طريق ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا. وهذا إسناد حسن، وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي. ورواه مالك في الموطأ (٢/ ٤٠٩/ ٨) بلاغا، وقال ابن عبد البر في "التمهيد" (٢٤/ ٣٣٣-٣٣٤): "هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره". انظر: محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، د.ت.، حديث (رقم ٤٥)، مج١/ ص١١٢.

ج. **التشريع**: وهي الأحكام خاصة وعامة. فالقرآن الكريم يؤكد في آياته أنه كتاب تشريع. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد تضمن القرآن -حسب ابن عاشور- جميع الأحكام إما جمعا كليا أو جمعا جزئيا. حيث إن القرآن فصّل في الهام بأحكام جزئية مفصلة، وأتى بالكليات في الباقي. وهذا مصداق قوله تعالى:﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩] وقوله تعالى:﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: ٣].

فالمراد من الآيتين حسب ابن عاشور إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس.[1]

د. **سياسة الأمة** وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها.[2]

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٤٠.

(٢) المرجع السابق، مج١، ج١، ص٤٠. وانظر أيضاً: محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس- الجزائر: الشركة التونسية للتوزيع، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت.، ص١٠٤.

هـ. **القصص وأخبار الأمم السالفة** للتأسي بصالح أحوالهم... وللتحذير من مساوئهم.[١] ولها فوائد كثيرة تنطوي على تعليم المسلم الوعي التاريخي والتجربة التاريخية للإنسانية، وما تضمنه ذلك من كفاح الأنبياء وأتباعهم من أجل ترسيخ خط النبوة والإكراهات التي تعرضوا لها، والتدرج التاريخي الذي سلكه الأنبياء مع أممهم من أجل الارتقاء بهم، ومختلف التجارب الإنسانية في جوانب التشريع والأخلاق والعمران. والوعي بسنن التبدل والتغير والانهيار والتحضر.[٢]

و. **التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين**، وما يؤهلهم إلى تلقى الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع، وعلم الأخبار، وتعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال. وقد دعا القرآن إلى النظر ونوه بشأن الحكمة. فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩] وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم.

وقد نبه القرآن - في كم من آية - على فائدة العلم والكتابة والقراءة، في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العنكبوت: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩] وقوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: ١].

ز. **المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير**. وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

ح. **الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول**. إذ التصديق يتوقف

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٤١.
(٢) المرجع السابق، مج١، ج١، ص٤١، ص٦٥-٦٨.

على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدياً لأجله بمعناه[١].

والعناية ببيان وجوه إعجاز القرآن مبعثها أصل كبير من أصول الإسلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول ﷺ معانديه تحدياً صريحاً.[٢]

هذه المقاصد تجعل من القرآن مركزياً في المعرفة، وفي العمل وفي التأسيس للمفاهيم، والقيم، والعبادات، والشعائر، والاجتماع، والعمران، وفي التبيان، وفي التهذيب، أي أنه شامل لكل أوجه الحياة والمعرفة.

٢. كيف تستمد العلوم والمعارف من القرآن

إن الناظر في المقدمات التي افتتح بها ابن عاشور تفسيره يجد أن المقصد الأعلى للقرآن -والمتمثل في صلاح الإنسان- له أبعاد ثلاثة؛ هي البعد الفردي والبعد الجماعي والبعد العمراني. وهذه الأبعاد تنطوي بدورها على علوم مختلفة لتحقيق هذا المقصد الأعلى. ليس ذلك فحسب، بل إن المقاصد الأصلية الثمانية التي تتمحور حول المقصد الأعلى تنشئ علوما مختلفة تتعلق بالاعتقاد، والتشريع، والأخلاق والقيم، والمواعظ، والتاريخ، والسياسة العامة، والعلوم العقلية المختلفة.

ولهذا فابن عاشور يؤكد من جهة أخرى على صلة مختلف العلوم بالقرآن الكريم. ذلك أن القرآن الكريم ليس كتابا للعلوم بالمعنى الأكاديمي، وإنما القرآن ينظم علاقته بالعلوم في مستويات أربعة؛ فمنها ما هو مستمد مباشرة من القرآن كتاريخ الأنبياء والأمم وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة، ومنها علوم تزيد المفسر علما كالحكمة

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٠-٤١.
(٢) المرجع السابق، مج١، ج١، ص١٠٢.

والهيأة وخواص المخلوقات، ومنها علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق، ومنها علوم لا علاقة لها بالقرآن إما لبطلانها كالميثولوجيا[١]، وإما لأنها لا تعين على خدمته.[٢]

ونفهم من هذا كله أن القرآن يشكل مرجعية للعلوم الدينية وغير الدينية. فالقرآن يقوم بدور مرجعي في هندسة بناء المعرفة، مما يجعلها ذات أصول مشتركة وتتجه إلى تحقيق أهداف متضافرة. ذلك أن التشظي المشهود في المعرفة في العالم الإسلامي والإشكالات المتعددة ناتجة عن استبعاد القرآن الكريم عن مسار الإنتاج المعرفي وعن هيمنته على إنتاج المعرفة.

ولذلك -وخاصة في مجال العلوم المرتبطة بالدين- أن يكون القرآن المصدر الأعلى ويكون معيار صواب الآراء والأفكار والمصدر الرئيس للقواعد الثابتة لجميع المعارف، وجميع مناشط الإنسان لتحقيق الهداية والاستخلاف، والناظم لمختلف أفرع المعرفة.

***

(١) الميثولوجيا هي علم يهتم بالأساطير وكيف تتشكل وتأثيرها وصلتها باعتقادات الناس وثقافاتهم. والمقصود بها هنا في كلام ابن عاشور هي الأساطير.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، مج١، ج١، ص٤٥.

الدين سنة كونية وثابت من ثوابت التاريخ الإنساني

لا شك أننا اليوم في مرحلة جد حرجة من الصراع الحضاري، نحتاج فيها إلى الانتباه الشديد إلى محاولات تجريد الإنسان المسلم فردا وجماعة من مصادر قوته، وافتكاك مرجعيته في تحديد تصوراته وأفكاره وفهمه للعالم ولحركة التاريخ ولوظيفته في تحقيق العبودية لله تعالى، ودعوة الناس إلى أن يتحرروا من العبودية لغيره سبحانه.

في هذا السياق فإن الرجوع إلى القرآن والسنة أمر مهم جدا في تحديد تصوراتنا ومفاهيمنا المركزية، وبخاصة ما يتعلق بفهمنا للدين، ودوره ووظيفته في حياتنا. ولبناء وعي أصيل مرتكز على نصوص القرآن والسنة وعلى ما أنجزه علماء الأمة الأعلام، حتى لا نقع في فهم اختزالي أو مشوه أو متناقض، إعمالا لحديث (يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)[1]، ونعمل على حماية فهمنا الديني ووعينا الإسلامي من انتحالات المبطلين، وتأويلات الجاهلين، وتحريفات الغالين.

وفي هذا المقال نحاول أن ننظر إلى الدين في رحاب سعة القرآن والسنة النبوية، لنجد أنه سنة من سنن الكون التي وضعها الله سبحانه وتعالى هداية للإنسان ليحقق عملية الاستخلاف وعمارة الكون، وثابت من ثوابت التاريخ لا تخلو منها أي تجربة إنسانية، مهما حاول المبطلون إخفاءها أو استبعادها.

(١) رواه البيهقي. وروى هذا الحديث جماعة من الصحابة ﷺ ولهذا الحديث طرق كثيرة عنهم وهو حديث حسن لتعدد طرقه قال العلامة إبراهيم بن الوزير: [وهو حديث مشهور صححه ابن عبد البر]. وروي عن أحمد أنه قال: هو حديث صحيح. قال زين الدين: [وفي كتاب العلل للخلال عن أحمد سئل عنه فقيل له كأنه كلام موضوع؟ فقال: لا هو صحيح فقيل له: ممن سمعته؟ فقال من غير واحد...] العواصم والقواصم ١/ ٣٠٨، وذكر العلامة ابن القيم طرق الحديث في مفتاح دار السعادة ص ١٦٣-١٦٤، وجزم الحافظ العلائي بأن الحديث حسن.

١. الدين جزء من الناموس الكوني

في الصفحات الأخيرة من كتابه (الظاهرة القرآنية) يزودنا العلامة مالك بن نبي رحمه الله بنص بالغ الأهمية، حيث يقول: "في ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونا خاصا بالفكر"[١].

وهو قانون من قوانين الله عز وجل التي فُطرت عليها النفس الإنسانية.. وهو "فضلاً عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، فإنه يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكوِّن الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الغرائز في خدمة هذا الأنا"[٢]. وهذا ما يؤكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي بقوله: "إن الدين كان مصدر الحيوية التي أدت إلى وجود الحضارات وحافظ على وجودها"[٣].

لعل هذا النص يذكرنا بأن الدين أمر فطري في الإنسان، وذلك من جهتين؛ من حيث أنه حقيقة خارجية - ليست من صنع الانسان واختراعه- أوحى به الله منذ خلق آدم عليه السلام، بل منذ عالم الذر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَنُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]. ومن حيث الممارسة الدينية التي عرفتها البشرية عبر التاريخ، فإن البشرية لا تنفك عن التدين منذ فجر التاريخ إلى اليوم.

وبتأمل الآيات والأحاديث النبوية نجد أن الفطرة شكلت في البداية أساساً

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤م، ص٣٠٠.

(٢) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص ٦٦.

(٣) آرنولد توينبي ودايساكو إكيدا، التحديات الكبرى: الحياة والدين والدولة - حوار، ترجمة: محمود متقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩م، ص٣٦٧.

لإقامة مجتمع التوحيد، وكان الإنسان يمارس خلافة الله على الأرض وفقا لذلك ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

فاتجاه الإنسان الفطري نحو التدين اتجاه تكويني ذاتي، وجد مع الإنسان منذ بداية وجوده على هذه الأرض. وهذا ما يفسر مركزية التدين في حياة الإنسان ونزوعه الذاتي للدين، وفي تركيبة الإنسان وتكوينه نحو التقديس والتعبد، والبحث عن المقدس، والسعي نحو معبود عظيم يقدسه الإنسان ويعبده ويعبر عن شعوره وأحاسيسه التعبدية نحوه في مختلف المجتمعات القديمة والحديثة.

كما أن هذا العالم لا يستطيع أن يخاطب جانب الامتداد المطلق في نفس الإنسان، أو يكون بديلاً عن تلك الحقيقة التي تتجه إليها ذاته. لذلك فهو ينزع دوما إلى الاتجاه إلى حقيقة أسمى من هذا العالم المحسوس، ويشعر بقدرة تلك الحقيقة على ملء هذا الإحساس الفطري الذي يلح عليه بوعي ومن دون وعي منه.

تلك الأحاسيس حقائق علمية أيدتها الأبحاث، والدراسات النفسية، كما تؤيدها الحقائق الوجدانية، والألفاظ اللغوية التي وضعها الإنسان للتعبير عن هذه المعاني والأحاسيس الفطرية. ولهذا- كما يقول الشيخ دراز- فإن الحقيقة التي لا تقبل الجدل هي أن النزعة الدينية متعمقة ومتأصلة في الإنسان ومغروزة فيه فهي فطرة وغريزة. فما عرفت جماعة من البشر خالية عن دين تتدين به، وإن خلت عن العلوم والثقافات إلا أنها لا تخلو عن دين وعقيدة، سواء أكانت هذه الجماعة قديمة أم حديثة، متحضرة أم غير متحضرة.

بل أن الدين لو فُقِدَ فإن المجتمع والحضارة سرعان ما يفقدان قدرتهما على الاستمرار. وفي هذا نجد توينبي يؤكد بقوله "في كل مرة فقد الناس إيمانهم بدينهم خضعت حضارتهم للتفكك الاجتماعي الداخلي، والهجوم العسكري الاجنبي. والحضارة التي سقطت نتيجة فقدان الدين قد استبدلت به بعدئذ

حضارة ألهمها دين مختلف"[١].

ومن جهة أخرى فإن في الإنسان دوما ذلك التساؤل الفطري الدائم، عن مصدر هذا العالم، ومصيره، وحقيقة حركته فيما بين المبدأ والمنتهى. ولهذا فإن الإيمان بالله الواحد ورفض كل ألوان الشرك والطاغوت، ووحدة الهدف والمصلحة والمسير، معالم الفطرة الإنسانية، وأي شرك وجبروت، وأي تناقض وتفرق فهو انحراف عن الفطرة.

وبناء على ما سبق نجد أن القرآن الكريم يعرض الدين، ليس على أنه تشريع فحسب، بل على أنه سنة موضوعية، وقانون داخل في صميم تركيب الإنسان وفطرته، بل هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا يمكن تبديلها، ولا يمكن أن تنتزع من الإنسان لأنها جزء من أجزائه التي تقوّمه. وهذا ما يجعلنا نؤكد أن الدين ليس مقولة حضارية مكتسبة يمكن إعطاؤها ويمكن الاستغناء عنها، كما يذهب إلى ذلك خطاب الحداثة الغربي ومقلدوه من أبناء المسلمين.

فهو لا يمكن أن ينفك عن خلق الله ما دام الإنسان إنسانًا، فالدين يعتبر سنة لهذا الإنسان. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢].

٢. الدين حقيقة تاريخية

وتأكيدا على أن الدين ليس أمرا مكتسبا من التاريخ، وأنه ليس مقولة حضارية مكتسبة يمكن الاستغناء عنها فإنا نؤكد أنه ثابت من ثوابت التاريخ الإنساني، وليس متغيرا يمكن التخلي عنه.

(١) توينبي، التحديات الكبرى، مصدر سابق، ص٣٦٧-٣٦٨.

فلم يخلُ التاريخ أبداً من وجود الدين بصيغة أو بأخرى، عند أي أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. ولذلك فإن الرجوع إلى التاريخ يعطينا شهادته بأن الدين ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية، ليس هذا فحسب، بل إن الدين كان من وراء كل المنجزات البشرية.

وفي هذا السياق يدعمنا مالك بن نبي رحمه الله أيضا بشهادة أخرى من كتابه الكبير (الظاهرة القرآنية) بقوله: "كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، وجد سطورا من الفكرة الدينية ولقد أظهر علم الآثار دائما -من بين الأطلال التي كشف عنها- بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيا كانت هذه الشعائر، ولقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري، إلى عهد المعابد الفخمة، جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه فولدت الحضارات في ظل المعابد..."[1]. ولهذا فإن الدين الذي هو جوهر التجارب البشرية التاريخية والاجتماعية المتكررة خلال القرون يُعد أساس جميع التغيرات الإنسانية الكبرى، ولا نستطيع أن نتناول الواقع الإنساني من زاوية المادة فحسب.

لأن الدين كما يقول العلامة مالك بن نبي قانون يحكم فكر الإنسان كما تحكم الجاذبية الطبيعة، قانون يحكم فكر الإنسان ويوجه بصره نحو أفق أوسع، ويروض الطاقة الحيوية للإنسان ويجعلها مخصصة للحضارة[2]. بمعنى أن الفكر الإنساني في جوهره ينطلق من منطلقات دينية، سواء اعترف بذلك الناس أو أنكروه وتجاهلوه. ولو قرأنا تاريخ التجارب الحضارية الإنسانية فسنجد أن السر الكوني الذي يركِّب عناصر الحضارة ويبعثها قوة فاعلة في التاريخ هو الدين، وأن كل دين يطبع الفرد بطابعه الخاص، ويوجهه نحو غايات سامية.

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص٦٩ وما بعدها.

(٢) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص٣٠٠.

وفي الختام نقول إن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن الدين في الأفق الإسلامي الرحب فطرة كامنة في نفس الإنسان، وسنة من سنن الله في هذا الكون، يهدي به الله الإنسان إلى تحقيق وجوده، وثابت من ثوابت تاريخ الإنسان على هذه البسيطة.

***

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾: تنوع التجربة الدينية واختلافها

يتساءل كثير من شباب المسلمين عن مسألة الحرية الدينية وتعدد التجربة الدينية في ضوء تأكيد القرآن أن الدين عند الله الإسلام، وتأكيده أيضا أنه لا إكراه في الدين. فكيف نوفق بين هذين المسألتين؟

ولعلنا في مقالنا هذا نحاول أن نحدد مضمون ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ في ضوء ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾، لنصل إلى ما يضعه القرآن من تأسيس مفاهيمي ودقة منهجية في تناول المسألة الدينية.

١. الإسلام دين الله الواحد

ذلك أن المتأمل في القرآن الكريم يجد أنه يعتبر الإسلام هو الدين الحق، وهو دين الله الواحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، و ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣]، و﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح: ٢٨]، و﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصف: ٩].

وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة: ٣]، وهو الذي لا يقبل سواه دينا ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

ويعتبر القرآن الإسلام دين الأنبياء جميعا، أساسه الدعوة إلى توحيد الله، ولذلك هتف به الأنبياء جميعا، وانتسب إليه جميع الموحدين، فهو الذي أمر

الله بـه إبراهيـم عليـه السـلام فاسـتجاب لـه طائعـا مسـلما، واتبعـه أبنـاؤه مـن بعـده يعقـوب عليـه السـلام وبنـوه، واتبعـه نـوح مـن قبـل وكل أنبيـاء الله.

٢. دين الله واحد وتجارب التدين متعددة

إن تصميـم القـرآن عـلى أن الإسـلام هـو الديـن الحـق وأنـه ديـن الله تعـالى الـذي ارتضـاه وأنـه ديـن الأنبيـاء جميعـا، لا يمنـع مـن التسـليم بالوجـود الفعـلي للأديـان المختلفـة، بمعنـى أنـه يؤمـن بواقعيـة التعـدد الـذي لا يريـد محـوه بالقـوة والإكـراه؛ لأنـه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقـرة: ٢٥٦]، و﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافـرون: ٦].

كذلـك فـإن في القـرآن ذكـر لأنـواع مـن التديـن، واعـتراف القـرآن بوجودهـا التاريخـي رغـم عـدم إقـراره لهـا، وهـذا كلـه يمنـح المسـلم القـدرة عـلى ممارسـة النقد لأنـواع التديـن الأخـرى، ويفسـح المجـال أمـام النظـر والتأمـل في التجربـة التاريخيـة التـي تثبـت أن هنـاك تدينـات شـتى، واختلافـات كثـيرة في طرائـق التديـن، وهـذا تبعـا لحقيقـة الاختـلاف الواقـع بـين النـاس باعتبـاره سـنة مـن سـنن الله في الوجـود الإنسـاني، ومـن هنـا كان حديـث القـرآن الكريـم عـن الحقـوق والواجبـات لأهـل الأديـان الأخـرى وبيـان السـنة المطهـرة لهـا.

٣. وقوع الاختلاف بين الناس

والقـرآن يؤكـد حقيقـة قانـون الاختـلاف في قولـه تعـالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقـرة: ٢١٣]، و﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هـود: ١١٨]، ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ولعلنا نستشف من هذه الآيات أن الاختلاف قانون إنساني في مختلف أبعاده الفكرية والاجتماعية والدينية وغيرها،"فأخبر سبحانه أنهم لا يزالون مختلفين أبدا" كما يقول الشاطبي.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن الآيات تتحدث عن واقع إنساني لا تنفك عنه الانسانية منذ أن أوجدها الله تعالى وحدث بينها الاختلاف، ولا يزال، كما ذهب إلى ذلك القرطبي[١]. أما الطبري فيرى أنه لا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم[٢]. في حين يذهب ابن كثير إلى أن الله تعالى يخبرنا أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم[٣]. ويرى الرازي أن المراد افتراق الناس في الأديان والاخلاق والافعال[٤].كما يؤكد ذلك ابن عاشور بقوله:"إنّ جعلهم أمّة واحدة في الدّين منتفية، أي منتف دوامها على الوحدة في الدّين وإنْ كانوا قد وُجدوا في أوّل النشأة متّفقين فلم يلبثوا حتّى طرأ الاختلاف"[٥].

ومع تأكيد القرآن على أن دين الله واحد، وأنه دين الانبياء جميعا، فإنه يبين ايضا حقيقة الاختلاف الواقع في بين الناس باعتباره حقيقة تاريخية واقعة، وليس إقراراً لتلك الاختلافات في صحتها، ولهذا فإن القرآن يضع منهجية التصديق والهيمنة لتصحيح الاختلافات وتحقيق دخول الناس في إخلاص العبودية لله والاستقامة على دين الحق؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾[الصف:٩]، ولكن بلا إكراه للناس أن يؤمنوا؛ ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص٤٠٤-٤٠٦؛ ج١١، ص٢٣٤-٢٣٦.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري (جامع البيان)، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٣)، ج٧، ص١٤٢-١٤٣.

(٣) إسماعيل ابن كثير، تفسير ابن كثير، (دار طيبة: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ج٢، ص٤٢٣.

(٤) فخر الدين الرازي، تفسير الرازي (التفسير الكبير)، (دار الكتب العلمية، ط٢)،ج١٨، ص٧٦.

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٧، ص٢١٥.

يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ [يونس:٩٩]، لأن الله تعالى خلق الانسان وزوده بالقدرة على الاختيار ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ [الانسان:٣]، فلا يُكرَه أحد على الايمان بشيء، لأنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، من خلال سلسلة النبوة التي لم تنقطع من أول نبي إلى خاتم الانبياء عليهم الصلاة والسلام.

٤. قاعدة منهجية: لا إكراه ولا تلفيق.

هذا الاختلاف الإنساني في القناعات والآراء والديانات يعترف القرآن بوجوده حقيقة في الواقع، بغض النظر عن أن هذا الاختلاف محمود أو مذموم، ولهذا فإن القرآن يضع قاعدة هامة في شأن التعامل مع الاختلاف الديني وهي عدم الإكراه.

فإذا كان القرآن وضع قاعدة التصديق والهيمنة[1]، فإنه وضع أيضا قاعدة منهجية هي عدم الإكراه في الدين، لأن الدين يبنى على الاقتناع والحقيقة وليس على الإكراه أو المجاملة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا ما يفسح المجال للتعددية الدينية أمام الناس والتعايش بينهم، دون تلفيق بين الأديان، ودون محاولة دمج أحدها في الآخر، أو إكراه اتباع أحدها على تبني ما لم يقتنعوا به، ويوم القيامة يتحملون مسؤوليتهم أمام الله ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ [المائدة: ١٠٥]. مع التأكيد أن عدم الإكراه في الدين صمام أمان ضد الردة عن دين الحق، فإن من عرف الحق لا يرتد عنه، مهما كانت الظروف، ويغلق الباب على الخلط بين الحرية في اختيار الدين وبين التلاعب بالدين عن طريق الردة، لأن أغلبها ردة وهمية

(١) فالقرآن مصدق لما ثبت من رسالات الأنبياء نافٍ عنها ما ألحق بها من زيادة أو نقصان عن طريق التحريفات التي لحقت بها، ومهيمنا على ما فيها من وحي؛ أي حافظا وأمينا ومؤتمنا على مضمونها، لا يقبل ما أضيف إليها عبر التاريخ من زيادات المحرفين. مصداقا لقوله تعالى:"... مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه"

مصطنعة لها خلفيات نفسية مرضية-، بخاصة أن من أدوار الدين في حياة المجتمعات إرساء الاستقرار ولو فتح هذا الباب لأدى إلى الفوضى والتفكك.

***

منهجية التصديق والهيمنة في القرآن

جاء القرآن الكريم هداية للبشر في كل شؤونهم ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، كما أنه اعتبر حركة الرسالات النبوية سلسلةً متكاملة جاءت لتصحيح الدين الواحد الذي طرأت عليه التبدلات بفعل التجربة الإنسانية والتغير التاريخي، قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى:١٣]،

ويُعزز هذا ما قدَّمه القرآن نفسُه من مناهج للتعامل مع أهل الأديان الأخرى. وهي مناهج تأخذ بالرفق بأيدي التائهين والمنحرفين إلى الصراط المستقيم إن كانوا مستعدين لذلك. فالقرآن الكريم لم يحدد للمسلمين اتجاههم فقط، بل دلهم على مناهج يسلكونها في إطار المنطق العلمي والحرية الفكرية للتوصل إلى أهدافهم، ويطبقون من خلالها نقدهم ودراساتهم.

١. التوحيد معيار التصحيح

كما أن معيار التوحيد الذي وضعه القرآن للحكم من خلاله على الأديان واعتبار الإسلام هو الدين الحق معيارا عاما مجردا يمكن تعميمه وتطبيقه دون تحيز. يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤]، و﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ

مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الشورى:١٣-١٥].

فالصحة مرتبطة بدرجة التمسك بالتوحيد الصحيح، والخطأ أو الزيف يتحدد في درجة البعد عن التوحيد الصحيح.

وفي الوقت نفسه اعتمد الإسلام مبدأ التصحيح كما يقول الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن[1]، فالأديان قابلة للتصحيح، وللعودة إلى التوحيد في صورته الصحيحة. ولا يوجد دين باطل بالأصالة أو بالفطرة، فالأخطاء التي وقعت للأديان أخطاء بشرية يمكن معالجتها. وحركة التصحيح حركة مستمرة قد تحدث بدوافع داخلية أي من داخل الدين ذاته استجابة لعوامل الفطرة السليمة والعقل السليم، أو بدوافع خارجية نتيجة التأثر بدين آخر. فالانتقال من الباطل إلى الحق ممكن، والانتقال من الحقيقة النسبية إلى الحقيقة المطلقة ممكن.

فالأديان في حالة تصحيح مستمر لذاتها، وفي سعيها للحقيقة تصلح من نفسها وتقبل النقد والتصحيح، بصرف النظر عن مصدره داخليا كان أو خارجياً. لهذا كثرت حركات الإصلاح في تاريخ الأديان بهدف تصحيح الأوضاع الدينية.

ولهذا اعتبر القرآن حركة الرسالات النبوية سلسلة متكاملة جاءت لتصحيح الدين الواحد الذي طرأت عليه التبدلات بفعل التجربة الإنسانية والتغير التاريخي.

(١) محمد خليفة حسن، تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة، (الدوحة: مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م)، ص٣٤-٣٥.

٢. التصديق والهيمنة .. طريق التصحيح

ويكون ذلك التصحيح المستمر عن طريق منهجية التصديق والهيمنة التي ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

وفي تفسير هذه الآية نجد أن الهيمنة القرآنية على بقية الكتب الدينية تحمل معاني: أن القرآن عالٍ ومرتفع عليها، وشاهد، وحافظ لتراث النبوة، ومؤتمن عليه، وهو ما ذكره القرطبي عن ابن عباس ﷺ وسعيد بن المسيب بأن القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب، وأمين عليها.

وتكمن أهمية منهجية التصديق والهيمنة القرآنية في كونها أساساً مهما في أغلب عمليات المراجعة والتقويم، كما أنها سبيل قويم لممارسة الحوار والتدافع مع مختلف العقائد، وهي كذلك مرجع في وزن كل التصورات والعقائد الإيمانية والسلوكيات الأخلاقية الذاتية أو الغيرية، لاختزانها إمكانية الإحاطة بجوانب الصواب والاختلاف، فتزكي الصالح وتدفع الطالح، وتثبت النافع وتمحو دفعا الزبد الغث الضار.

٣. القرآن وضع أسس المراجعة العقدية

فعمليات المراجعة العقدية التي جاء القرآن بتأسيسها من خلال نصوصه، كانت دعامة نقدية للعقل الإنساني ومعارفه الغيبية على وجه الخصوص، وقد دافعت عن التصورات القرآنية المستجدة ببرهانية صارمة، كما دفعت بعض عقائد السابقين من أهل الكتاب المحرفة[1].

فبالتصديق يعيد القرآن المجيد تراث النبيين وكتبهم الموحاة إلى حالة الصدق التي نزلت بها بعد تنقيتها من كل ما قد شابها من تغيير وتحريف

(١) يوسف محمد بناصر، حاجتنا لمفاهيم جديدة لتقويم العقل المسلم: مفهوم التصديق والهيمنة، ينظر: http://benaceur.arabblogs.com/archive/2008/9/677620.html

أو مؤثرات إنسانية، وبالهيمنة وضع القرآن تراث النبوات الخالص بين آياته وجعله في حمايته ليكون الدين الواحد لله الواحد. ولئلا يتعرض مرة أخرى إلى التدخل البشري[١].

٤. وجهتا منهجية التصديق والهيمنة:

كما أن منهجية التصديق والهيمنة في القرآن المجيد لها وجهتان؛ **الوجهة الأولى**: إزاء الكتب السالفة؛ فهناك تصديق لما صحّ من هذه الكتب ثم هيمنة عليها في تكامل تامّ معها. **والوجهة الثانية**: إزاء ما يمور ويعتلج في حياة الناس وارتفاقاتهم من ممارسات وما هو مستقر فيها من أعراف. والتصديق في هذه الوجهة عبارة عن إقرار الصالح من كل ذلك بالسكوت عنه أو الثناء عليه، وتغيير الطالح بالحديث عنه وكشف مساوئه[٢].

إن التصديق القرآني لم يلغ كل عقائد ويقينيات السابقين، بل تعامل معها على أساس أن في بعضها ما يستحق التنويه كما أن فيها ما يمكن أن يتبعه المؤمنون؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى:١٨-١٩]، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة:٣٢]، كما أكد على أن فيها ما حرف وبدل، وانتهكت فيه شريعة النص الأصلي أو الكلام الإلهي كما حدث مع بني إسرائيل بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، وكذلك ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٧]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٤]، فوجب تجنبها ومدافعتها لأنها لا تتأسس على شرعية نسبتها إلى الله على أية حال.

(١) طه جابر العلواني، مفاهيم الفقه والعرف، جريدة الأهرام، الاثنين ٤ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢١ مايو ٢٠٠٧م، السنة ١٣١، عدد ٤٣٩٩٥.

(٢) أحمد عبادي، من مكونات المنهج النقدي في القرآن الكريم: التصديق والهيمنة.
http://www.alquran.ma/Article.aspx?C=5562

فتصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من الكتاب: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، إنما هو تصديق بالتوراة، وشريعته ورسالته مكملة لشريعة موسى عليه السلام فيما احتواه الإنجيل من وصايا، وهما امتداد لشريعة إسرائيل التي انحرف عن أغلبها بنو إسرائيل لطول الأمد عليهم ومعاندتهم لرسلهم، وأما تصديق المسيحية فقد كان بالعهد القديم والعهد الجديد ولا يصح الإيمان المسيحي إلا بالجمع بينهما، وبدورها الديانة الإسلامية لخاتميتها -أو باعتبارها عهدا أخيرا كما يسميه بعضهم، فقد صدّقت وهيمنت على كل الشرائع السماوية السابقة؛ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

وواقع الهيمنة القرآنية وقوتها تكمن في الإبقاء على الأصلح والاعتراف به، مع تجديد في بعض الفروع أو التأسيس لبعض الأصول أو رفع الغل والمشقة ونسخ ما كان يضيق به صدر المؤمنين من الأحكام؛ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، ثم لأنها عقيدة خاتمة ومتممة، فلا ينبغي لها الإفراط والتشدد، ولا التفريط والإخلال، فهي شريعة الديمومة والامتداد، وهي شريعة الوسط لأمة عالمية تمتاز بالوسطية وبالخيرية والخاتمية، فوجب أن تستمر إلى آخر الزمان وتتعالى عن النقصان أو الزيادة والتحريف، مصدقة ومهيمنة، تجمع العقيدة والشريعة، والأخلاق والقيم[1].

***

(١) أبو القاسم حاج حمد، إبستمولوجية المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج، (بيروت: دار الهادي، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص٢١٠؛ بناصر، مفهوم التصديق والهيمنة، مرجع سابق.

مقاصد الشريعة تحقيق لأخلاقية الرؤية الإسلامية

ينتاب كثيرا من المشتغلين بالعلم الشرعي ريبة وشك وتردد في القول بالمقاصد والعمل بها وإعمالها، ظنا منهم أنها هروب من الالتزام بأحكام الشرع الفرعية، ومدخل إلى التمييع والتسيب في تطبيق الأحكام الشرعية. وهذا لعمري حكم فيه مغالطة، لأنه مبني على سوء فهم لمقاصد الشريعة، أو هيمنة للفهم الحداثي العلماني للإسلام، أو أنه فقدان للتصور الصحيح لعلم المقاصد، وأهميته في تحقيق تكامل أحكام الشريعة في حياة المسلم، وترتيبها في كليات وجزئيات تابعة لها.

وبخاصة في زمننا هذا، حيث يتطلب منا تشكيل تصور عام وإطار كلي، من خلاله نتصرف تصرفا شرعيا، يحقق ذاتيتنا، ويحكم نظرتنا في جزئيات الأمور، بما يحقق الغايات العامة الكلية، ويحفظ إعمال الجزئيات، بما لا يحدث تناقضا في فهمنا وتعاملنا.

ولهذا، فإن على طلبة العلم الشرعي وعلى الدعاة والعاملين للإسلام والمثقفين المسلمين أن يبذلوا جهدا مستمرا في مدارسة بعض الكتب المتعلقة بعلم المقاصد، لتزويد أنفسهم بفهم صحيح لمقاصد الشريعة، ولتمكين أنفسهم من الخروج من العقل الجزئي والتناقض أو التعارض الذي يجدونه في أذهانهم بين بعض الأحكام، ولتحقيق أخلاقية الرؤية الإسلامية للحياة.

١. ماهية المقاصد الشرعية

ولو اطلعنا على ما كتبه الشاطبي في "الموافقات"[١] أو ما كتبه ابن عاشور في "مقاصد الشريعة الإسلامية"[٢]، فإننا سنجد زادا معرفيا ومنهجيا عظيما قدمه هذا العلم للمسلم اليوم؛ لأن القارئ لهما ولتراثهما العلمي يجد أن مقاصد الشريعة رابط جامع لكل فروع التشريع في جميع المناحي العبادية والعادية والاجتماعية والقضائية وغيرها، فهي لا تخرج عن كلياتها ومقاصدها الثابتة، وهذه الكليات العامة والأهداف الرئيسة للتشريع حاكمة للفروع وليست محكومة بها، ويسير الاجتهاد الفقهي في فلكها ولا تخضع لأفلاك المجتهدين أو الفقهاء.

هذه المقاصد تتجه إلى تحقيق مقصد عام أشار إليه الشاطبي من قبل، ثم ركز عليه ابن عاشور كثيرا. هذا المقصد العام هو الأمة في عمومها، والإنسان خصوصا.

وفي هذا يقول ابن عاشور: "إذا نحن استقرأنا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا... أن المقصد العام من التشريع فيها حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان"[٣].

٢. خطاب المقاصد تحولٌ من الفردي والجزئي إلى الاجتماعي والكلي

والتحديد المذكور أعلاه، والمتعلق بالمقصد العام من التشريع، يعد في الحقيقة تحولا مهما في التفكير الفقهي والاجتهادي، لأنه انتقل من التمركز على الفقه الجزئي والفردي إلى التوسع إلى الفقه الاجتماعي والانتباه إلى الشأن العام، وهذا من خلال التأكيد على مفهوم "الأمة" ومفهوم "نوع الإنسان" ومفهوم "الصلاح".

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي. الموافقات، تحقيق وتعليق: الحسين آيت سعيد، الدوحة: إدارة الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وفاس: منشورات البشير بنعطية، ط١، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر. مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، عمّان: دار النفائس، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١١ من مقدمة المحقق.

(٣) المرجع السابق، ص٢٠٠.

فإذا كان مفهوم "الأمة" يخرجنا من الدائرة الضيقة التي حصر فيها الفقه نفسه قرونا عديدة، فإن مفهوم "الإنسان" ارتفع في مستوى الخطاب إلى مستوى مفهومي واسع هو الإنسان من حيث هو إنسان، وليس مفهوم "المكلف" الذي يوحي بانحسار المفهوم في الدائرة الفقهية.

أما مفهوم "الصلاح" فهو نقل للتفكير الاجتهادي إلى مستوى الخطاب الأخلاقي؛ ذلك أن الصلاح باعتباره موضوعا أخلاقيا يجعل من مقاصد الشريعة علما أخلاقيا، وعليه فإن الهدف العام أو المقصد العام أو الغاية القصوى للدين والتشريع هي غاية أخلاقية بأن يحقق الإنسان الصلاح، أو بعبارة أخرى أن يكون الإنسان كائنا أخلاقيا[1].

٣. المقاصد إعمال للصلاح ونفي للفساد بمنظور كلي

والرؤية المقاصدية كما يذكر ابن عاشور وعلماء المقاصد تقوم على تحقيق أمرين مهمين ومتلازمين: أولهما تغيير الأحوال الفاسدة وإعلان فاسدها، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وفي قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦].

أما ثانيهما فتقرير أحوال صالحة قد اتبعها الناس، وهي الأحوال المعبر عنها بالمعروف في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]، بل إن القرآن الكريم أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر

(١) عبد الرحمن، طه. "مشروع تجديد علمي لمبحث مقاصد الشريعة"، مجلة المسلم المعاصر، مجلد٢٦، ع١٣، ٢٠٠٢م، ص٤-٦. انظر أيضاً:
- عبد الرحمن، طه. تجديد المنهج في تقويم التراث، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٤م، ص١٢٣.

الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم كما يقول ابن عاشور، فقد قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية.

٤. القول بالمقاصد قول برؤية أخلاقية كلية للشريعة

إن القول بالمقاصد، قول بوجود كليات قيمية كبرى تشكل المحاور الأساس للشريعة الإسلامية، وتجعل منها غايات يسعى النظر الفقهي إلى الاحتكام إليها في سعيه الاجتهادي، توجهه هذه المقاصد إلى غايات عليا، تحقق إنسانية الإنسان.

هذه الغايات في جوهرها مجموعة قيم كلية عامة، وهذا بدوره يجعل من الشريعة ذات صبغة أخلاقية، ويجعل من الرؤية الإسلامية رؤية أخلاقية غايتها أخلقة الإنسان في دوائر وجود الفردية والجماعية والعمرانية الحضارية.

والذي يجعلنا نقول إن "مقولة المقاصد" مقولة كلية من مقولات الفكر والتفكير الشرعي، وأنها تؤسس لأخلاقية الرؤية الإسلامية، هو أن القول بوجود مقاصد عامة للشريعة ينطوي على احتواء الشريعة على كليات كبرى وغايات قصوى تقوم عليها هذه الرؤية.

وتمحور الشريعة ومقاصدها على محور تحقيق المصالح، ودورانها حول محور صلاح الإنسان يجعلها مقاصد أخلاقية، باعتبار أن أعلى قيمة تحكم الإنسان في الرؤية الإسلامية هي القيمة الأخلاقية. وذلك من جهتين: من جهة أن الشريعة (الدين) ذاتها تصنع الخميرة الأخلاقية للمجتمع بتعبير مالك بن نبي[1]، ومن جهة أن الصلاح مفهوم أخلاقي في أساسه، وأن أخص خصائص

(١) بن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، ١٩٨١م، ص١٣. انظر أيضاً:
- بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، ط٣، ١٩٨٦م، ص٦٦.

الإنسان أخلاقياته كما يذهب إلى ذلك طه عبد الرحمن[1].

فهل يبقى بعد هذا شك في أهمية المقاصد والنظر المقاصدي كما أسسه علماء الإسلام الأعلام، ومدى حاجة المسلم لهذا الإطار الكلي للنظر الشرعي بما يجعلنا على اقتدار معرفي ومنهجي في إدراك كليات الشريعة والعمل بجزئياتها في انسجام وتكامل؟

***

(١) عبد الرحمن، طه. "مشروع تجديد علمي لمبحث مقاصد الشريعة"، مجلة المسلم المعاصر، ع١٠٣، السنة٢٦، ص٤٣. انظر أيضاً:
- عبد الرحمن، طه. سؤال الأخلاق، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٥م، ص١٣-٢٩.
- عبد الرحمن، طه. تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق. ص١٢٢-١٢٣.

مقصد الحرية تحقيق لمركزية الإنسان من المنظور الإسلامي

إن الإسلام رسالة تحرير للإنسان من كل أنواع العبودية، وإطلاق لطاقاته ليحقق الاستخلاف ويعمر الأرض ويحمل الأمانة، ولهذا كانت شريعة الإسلام هي المنهاج لتحقيق إنسانية الإنسان.

وإن البحث في أصول الشريعة يؤدي -كما يقول العلامة ابن عاشور- إلى اكتشاف مقاصد عظيمة الشرع متشوف إلى تحقيقها. ولهذا رأى ابن عاشور، في كتابه "مقاصد الشريعة" أن من بين المقاصد التي جاءت الشريعة لتحقيقها مقصد الحرية الذي يمثل أصلا من أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

ولعل زماننا هذا في أمس الحاجة إلى تأصيل هذا المقصد العظيم، حيث كثر ظلم الإنسان لأخيه، وكثرت أنماط الهيمنة على الإنسان بفعل الحضارة الغربية المادية المتغطرسة التي أفقدت الإنسان حريته، وجعلته كائنا هامشيا تابعا لرغبات الاستهلاك، وتكالب السوق، وسيطرة الماكينات والأجهزة الإلكترونية.

ولهذا نتساءل: كيف تكون الحرية مقصدا؟ وكيف تجعل من الإنسان مركزا وليس هامشا؟ لكنه مركز مرتبط بقيم السماء وليس مرتكسا في حمأة المادة.

إن موضوع الحرية تناوله الفقهاء الأعلام من قبل من خلال إثباتهم للقاعدة الفقهية "الشارع متشوف للحرية"، ولكن ابن عاشور ارتفع بها إلى مستوى تنظيري غير مسبوق، أولاً من جهة جعلها مقصدا من مقاصد التشريع، وثانياً من جهة سعة مفهوم الحرية ذاته. حيث نظر ضمنها بعدين مهمين هما: تحرير الإنسان من العبودية (حرية الرقبة)، وتمكن الشخص من

التصرف في شؤونه كما يشاء دون معارض (حرية التصرف)[١].

ويذهب الأستاذ الريسوني في مقال عن"الحرية في الإسلام أصالتها وأصولها"[٢] إلى أن ابن عاشور خير من تناول هذه المسألة من علماء الإسلام في كتابيه (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و(مقاصد الشريعة). واعتبر الحرية إحدى المصالح الأساسية والضرورية التي يقوم عليها المجتمع ويجب على ولاة الأمور تحقيقها وصيانتها.

وفي هذا السياق يقول ابن عاشور:"والحرية بكلا المعنيين وصف فطري نشأ عليه البشر"، كما يؤكد في كتابه (النظام الاجتماعي في الإسلام):"أن الحرية خاطر غريزي في النفوس البشرية، فبها (أي الحرية) نماء القوى الإنسانية من تفكير وقول وعمل، وبها تنطلق المواهب العقلية متسابقة في ميادين الابتكار والتدقيق. فلا يحق أن تسام بقيد إلا قيدا يدفع به عن صاحبها ضر ثابت أو يجلب به نفع"[٣].

بل إن أصالة الحرية وفطريتها لا شك فيهما أبدا، ذلك أنها"حق للبشر على الجملة، لأن الله لما خلق للإنسان العقل والإرادة وأودع فيه القدرة على العمل فقد أكنَّ فيه حقيقة الحرية وخوله استخدامها بالإذن التكويني المستقر في الخلقة"[٤]. والاعتداء على الحرية من أكبر أنواع الظلم[٥]. لأن الحرية أمر فطري وأصل أصيل في الاجتماع الإنساني، فهي"حلية الإنسان، وزينة المدنية، فبها تنمى القوى وتنطلق المواهب، وبصونها تنبت الفضائل والشجاعة والنصيحة بصراحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتتلاقح الأفكار،

(١) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص١٦٢.

(٢) أحمد الريسوني،"الحرية في الإسلام أصالتها وأصولها":
www.raissouni.org/Docs/155200711501AM.doc

(٣) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الاسلام، ص١٦٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٥) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٩٠-٢٩٥.

وتـورق أفنـان العلـوم"[١].

كـما أن الحريـة أمـر غريـزي في النـاس لأنهـا كـما يؤكـد في الكتـاب نفسـه خاطـر غريـزي في النفـوس البشريـة، والله سـبحانه وتعـالى منحهـا للإنسـان، لأن الله لمـا خلـق للإنسـان العقـل والإرادة وأودع فيـه القـدرة عـلى العمـل فقـد أكـنَّ فيـه حقيقـة الحريـة وخولـه اسـتخدامها بـالإذن التكوينـي المسـتقر في الخلقـة[٢].

إن الاهتـمام بمقصـد الحريـة عنـد المقاصديـين المسـلمين- إذا فهمنـاه في سـياقه الفكـري والتاريخـي- لا يجـد القـارئ فيـه كبـير عنـاء للانتبـاه إلى أهميـة الإنسـان في النظـر المقاصـدي وأهميـة فكـرة الحريـة.

فـإذا كان الخطـاب الحداثـي أفلـح في تغيـير وضـع الإنسـان الغـربي لأنـه اسـترجع مركزيـة الإنسـان بعـد أن همشـه الفكـر اللاهـوتي الكنسي، فإنـه حـري بنـا أن نمركزه أيضـا ونخرجـه مـن الجـدل الكلامـي إلى الإعـمال المقاصـدي، والرؤيـة الاسـتخلافية التـي تجعـل الإنسـان خليفـة في الأرض منوطـا بـه تحقيـق العمـران وتحمـل الأمانـة.

ولهـذا فالحريـة في المنظـور المقاصـدي لا تطـرح بمعناهـا الميتافيزيقـي كـما طرحهـا المتكلمـون في مقابـل الجبريـة، أي في صلـة العبـد بـالله، وإنـما طرحهـا بمعانيهـا الاجتماعيـة والفكريـة والسياسـية والثقافيـة. وهـذا في الحقيقـة تحـول مهـم جـدا في الفكـر والاجتهـاد يحسـب للمدرسـة المقاصديـة منـذ ابـن عاشـور، الـذي عمـل عـلى اسـتعادة خاصيـة مهمـة في الفكـر الإسـلامي وهي"التوسـل بالنظـر إلى العمـل" كـما يسـميها العلامـة طـه عبـد الرحمـن.

والنظـر إلى الحريـة باعتبارهـا مقصـدا شرعيـا وأمـرا فطريـا في الإنسـان، يجعـل مـن الخطـاب المقاصـدي للحريـة يقـوم بحـوار غـير معلـن مـع فكـر الحداثـة الـذي يدعـي مركزيـة الإنسـان.

(١) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص١٧٠.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٩.

وكأنه يقول إن الرؤية الإسلامية أيضا تمركز الإنسان من خلال مقصد الحرية، ولكن الإنسان الذي يمتد نظره وأفقه إلى السماء ليستمر وجوده مكرما مستخلفا، وليس الإنسان الذي يمركز نفسه من خلال ادعاء موت الإله وانتهاء اللاهوت ليصل إلى موت الإنسان نفسه بفقدانه المعنى في وجوده، وانمحاء تميزه من خلال اختصار وجوده في بعد واحد هو البعد المادي، ووقوعه في قبضة صيرورة الطبيعة والمادة، كما يقول العلامة المسيري.

فالإنسان مهم جدا ومحوري في الرؤية الإسلامية، وصلاحه مدار مقاصد الشريعة، ومن أهم مقاصده حريته في مختلف أبعادها، لأن الإنسان ليس وجودا ماديا فقط كما تذهب إلى ذلك بعض المدارس الفلسفية، ولا وجودا مختزلاً، ووجوده أيضا ليس نقيضا للوجود الإلهي حتى يحدث بينه وبين الله تعارض أو تضاد.

والحرية كما يقول المسيري أمر فطري قائم في نسيج الوجود البشري ذاته، فإن الإنسان له تاريخ يروي تجاوزه لذاته وتعثره وفشله في محاولاته. وما التاريخ إلا تعبير عن إثبات الإنسان لحريته وفعله في الزمان والمكان. ولعل تاريخ الإنسان هو تاريخ الوعي بحريته وبحدود تلك الحرية.

وإذا كانت الحرية صفة فطرية من صميم خلقة الإنسان ومن صميم مؤهلاته الأولية، فمن الطبيعي أن يجعل الإسلام -وهو دين الفطرة- هذه الحقيقة أساسا مرجعيا في تشريعاته وأصوله التشريعية كما يقول الأستاذ الريسوني. وبهذا فإن مقصد الحرية يجعل الإنسان مركزيا في هذا العالم بدل التهميش والاختزال الذي تعرض له بفعل الحضارة المادية المعاصرة[1].

***

(١) المسيري، عبد الوهاب. الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٢م، الإعادة الثانية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٣١.

أهمية المجتمع (الأمة) وإعادة الاعتبار للنظام الاجتماعي

المتأمل في حال أمتنا وتشتتها وتضارب مصالحها وانشغال أبنائها بمصالحهم الفردية أو الفئوية يدرك فقدان الروح الجامعة فيها، ويدرك غياب مفهوم الانتماء للأمة عمليا. وهذا يجعلنا نقول إنه لا بُد من إعادة الروح الجماعية للمسلمين؛ فهي شرط أساس في عملية التجديد والنهضة والعزة الحضارية، لأن "يد الله مع الجماعة" كما جاء في الحديث[١].

وما تداعت علينا الأمم كما يتداعى الأكلة إلى قصعتها[٢] إلا لفقداننا روح الجماعة، وعدم الانشغال بفروض الأمة والاكتفاء بالفروض الفردية. ولهذا فإن فقدان الروح الجماعية سبب جوهري من أسباب الهزائم والنكسات والأزمات التي غرقت فيها أمتنا الإسلامية[٣].

إن روح الجماعة والنزوع الجماعي، يؤدي بلا شك إلى تنمية القدرة على الانسجام الاجتماعي، والانشغال بقضايا الجماعة والأمة. وفي هذا يرى مالك بن نبي أن النزوع الجماعي معناه تنمية القدرة على الانسجام الاجتماعي، واندماج الفرد في الجماعة وانخراطه في العمل المشترك لترقية المجتمع ودعم علاقاته الاجتماعية.

(١) هذا طرف من حديث رواه الترمذي (٢١٦٦) مختصراً، والحاكم (١/ ٢٠٢)، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٧٠٢)، والطبراني (١/ ١٨٦) (٤٩٢). وغيرهم.

(٢) عنْ ثَوْبانَ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يُوشِكُ الْأُمَمُ أنْ تَداعى عَلَيْكُمْ كَما تَداعى الأكَلَةُ إلى قَصْعَتِها". هذا طرف من حديث رواهَ أبو داود في سننه (٤٢٩٧)، وله طرق أخرى عند المحدثين.

(٣) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ص٣٥.

وهـذا الـذي سـماه مالـك بـن نبـي شـبكة العلاقـات الاجتماعيـة، التـي ينبغـي تنميتهـا وتمتينهـا والحـرص عـلى اسـتمرارها وقوتهـا. ذلـك أن حـدوث أي خلـل في هـذه الشـبكة يـؤدي إلى الخلـل في مسـتوى البنـاء الحضـاري للأمـة، فيصبـح العمـل المشـترك صعبـا أو مسـتحيلاً؛ إذ يـدور النقـاش حينئـذ لا عـلى إيجـاد حلـول للمشـكلات بـل للعثـور عـلى أدلـة وبراهـين.

ولهـذا كـما يقـول مالـك بـن نبـي فـإن أول عمـل قـام بـه النبـي ﷺ في المدينـة المنـورة بعـد بنـاء المسـجد النبـوي هـو المؤاخـاة بـين المهاجريـن والأنصـار؛ نظـرا لأهميـة شـبكة العلاقـات الاجتماعيـة في عمليـة بنـاء الأمـة وتحقيـق قوتهـا واسـتقرارها، ومـن ثـم عطاؤهـا الحضـاري. فكانـت هـذه المؤاخـاة تأسيسـا لشـبكة العلاقـات الاجتماعيـة، وتأسيسـا للجماعـة المسـلمة التـي هـي أول لبنـة في البنـاء الاجتماعـي الإسـلامي.

ولعـل الفكـر الإسـلامي في تطـوره تنبـه لمثـل هـذا الأمـر، ولـو نظرنـا إلى خـط التفكـير الشرعـي المقاصـدي لوجدنـا تلـك النقلـة النوعيـة التـي قدمهـا الشـاطبي في (الموافقـات) ببحثـه في المقاصـد العامـة، ثـم العلامـة ابـن عاشـور بإدخالـه مفهـوم الأمـة بـدل الفـرد -أي البُعـد الجماعـي- بـدلاً مـن الانحصـار في عـد المكلـف الفـرد عنـد النظـر في التشريـع. فهـو يقـرر أن علـم مقاصـد الشريعـة علـم يتنـاول الموضوعـات العامـة ذات الصبغـة الجماعيـة، وأن الأحـكام التـي يأمـل أن يؤسـس قواعدهـا هـي أحـكام تتنـاول المجتمـع والأمـة والجماعـة الإسـلامية.

فالأمـة والجماعـة و"شـبكة العلاقـات الاجتماعيـة" بتعبـير مالـك بـن نبـي هـي الأسـاس، وإن التركيـز عـلى معيار"الأمـة" بوصفهـا إطـاراً عامـاً لا على"النخبـة"، مـن شـأنه أن يحـدث انقلابـات نوعيـة في العمـل الإصلاحـي والتغيـيري في الأمـة التـي صـودرت كثـير مـن صلاحياتهـا في المشـاركة بعـد أن سـحب المفهـوم نفسـه أو كاد مـن التـداول والاسـتعمال.

وهـذا مـا أشـار إليـه عبدالحميـد أبـو سـليمان في "أزمـة العقـل المسـلم"[١] مـن أنـه بسـبب مـن الفصـام بـين القيـادة الفكريـة والقيـادة السياسـية أن اشـتغل رجـال الفكـر الإسـلامي بالشـؤون الخاصـة، ومـا يتعلـق بشـؤون الأفـراد مـن عبـادات ومعامـلات، دون كثـير التفـات إلى شـؤون السياسـة والحكـم ومؤسسـات المجتمـع وذاتيتـه الجماعيـة والعامـة... وعلينـا اليـوم أن ننمـي تلـك المنهجيـة الأصوليـة ونطورهـا، ليمتـد أثرهـا وعطاؤهـا عـلى أسـاس مـن الحاجـة المعـاصرة إلى مختلـف مجـالات الحيـاة والمعرفـة، وليـس الوقـوف بهـا فقـط عنـد دائـرة الأحـكام في مجـالات الحيـاة الفرديـة في الغالـب الأعـم، وبذلـك يحتفـظ الفكـر الإسـلامي بشـموليته وأصالتـه واجتهـاده وتكامـل مصـادره وعلومـه.

فالفصـام الـذي وقـع بـين القيادتـين في الأمـة في تاريخهـا المبكـر، أدى إلى انحصـار الشـأن العـام وتضخـم الشـأن الخـاص، ومراعـاة لهـذا الشـأن الخـاص نشـأت علـوم ومنهجيـات تجتهـد في الاسـتمداد مـن الوحـي، لتحكـم بـه الشـأن الخـاص والفـردي، في حـين بقـي الشـأن العـام تابعـا في أحسـن أحوالـه للشـأن الخـاص.

وهـذا ربـما أدى إلى مخاطـر معرفيـة ومنهجيـة وعمليـة كـمال يقـول الدكتـور سـعيد شـبار، إذ إن "المنطـق الفـردي في التفكـير طـال حتـى مناهـج الاسـتمداد مـن نصـوص الوحـي نفسـها، فـلا يـكاد ينظـر فيهـا إلا بوصفهـا تشريعـات للفـرد وحالاتـه الخاصـة وأحكامـاً مبـاشرة في ذلـك، مـع إغفـال كبـير للتأسـيس والتنظـير الجماعـي الاجتماعـي ومقاصـده والتعليـل المرافـق لـه ومـا إلى ذلـك"[٢].

ولهـذا يعـد مـا قـام بـه ابـن عاشـور نقلـة نوعيـة وإضافـة مهمـة واسـتعادة للـكلي والعـام في التفكـير بـدل الاقتصـار عـلى الجزئـي والخـاص، كـما هـو شـأن معظـم المنظومـة الفقهيـة الموروثـة. فابـن عاشـور يـرى في كتابـه (مقاصـد الشريعـة) أن مقصـد الشريعـة العـام هـو إصـلاح الاعتقـاد، كـما أنهـا تقصـد تنظيـم أحـوال

(١) عبد الحميد ابو سليمان، أزمة العقل المسلم، مرجع سابق، ص٧٤-٧٥.

(٢) سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، ص١٣.

الناس في حياتهم الاجتماعية، فيقول: "قد علمنا أن الشارع ما أراد من الإصلاح المنوه به مجرد صلاح العقيدة وصلاح العمل كما قد يتوهم، بل أراد منه صلاح أحوال الناس وشؤونهم في الحياة الاجتماعية"[1].

فالمجتمع أو الشأن الاجتماعي وشبكة العلاقات الاجتماعية أمر بالغ الأهمية، وهذا ما ينبغي التوجه إلى الاشتغال به من خلال الانشغال بالأمر العام، وفقه الشأن العام، والتأكيد على الأمة والمجتمع والاجتماع والعمران. ومن أهداف علم مقاصد الشريعة أن يتناول الهم العام والمسائل العامة ذات الصبغة الجماعية، وأن الأحكام التي يأمل أن يؤسس قواعدها هي أحكام تتناول المجتمع والأمة والجامعة الإسلامية. ذلك أن أحكام العبادات حري بها أن "تسمى بالديانة"، أما مقاصد الشريعة فإنها تتمحور حول الشأن الاجتماعي، فقد اصطلح على تسميتها باسم "نظام المجتمع الإسلامي". ولهذا خصص لها كتابا خاصا هو "أصول نظام المجتمع في الإسلام".

إن إبراز الجانب الاجتماعي للدين والاهتمام بالشأن العام، والنزوع لنوع الجماعة وإبراز النظام الاجتماعي الذي جاء الإسلام لتأسيسه تجعل من الإسلام دينا للتمدن والتحضر، وتخرجنا من الجدل العقيم حول صلاح الإسلام أو عدم صلاحه، وتخرجه من الجدل الكلامي والفلسفي النظري إلى محاولة صياغة أصول للفرد والمجتمع، تصلح لتأسيس العمران الإسلامي على أسس شرعية، بل وتوجه النظر إلى أن الدين ذاته من مقاصده عمران العالم وتأسيس التحضر، وهذا لم يُسبق إليه الإسلام أبدا. ونختم القول بقولنا إن التوجه نحو قضايا الأمة والشأن العام من شأنه أن يرأب الصدع في الأمة ويوحد جهودها. فإنه لا يستقيم لنا وجود ولا تتحقق لنا نهضة ما دامت الفردية غالبة على الجماعية، والفقه الخاص غالب على الفقه العام.

***

(١) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص٦٣.

حاجة المسلمين إلى الفعالية

إن صناعة التاريخ بقدر ما تحتاج إلى أفكار سليمة، فإنها تحتاج إلى فعالية في إنجازها، والأمم اليوم -في زمن العولمة والمادية الطاغية على اهتمامات الناس- تقاس درجة تحضرها بقدر ما تملك من فعالية في أدائها، وتحقيق ذلك في واقع الناس.

والفعالية إذا أردنا أن نتفهم حقيقتها في واقعنا اليوم، خاصة في المستوى الاجتماعي، فإنها لا تكاد تحيد عن معنى القدرة على توليد نشاط وحركية اجتماعية في الواقع، وذلك من خلال تفهم معادلتنا الاجتماعية، وتحديد متغيراتها، والقيام بأداء منهجي متناسق لا يحتوي خليطا من الأفكار المتناقضة.

ولعل الفعالية الاجتماعية هي أهم ما يميز الحضارة المعاصرة عموماً، والحضارة الغربية بوجه خاص، كما يذكر ذلك مالك بن نبي عليه رحمة الله، بحيث استطاعت هذه الحضارة الغربية تربية العقل والفكر الغربيين على مبدأ الفعالية، في المستويين الفردي والاجتماعي، وصارت تصبغ كل أفعاله وإنجازاته في إطار التاريخ بطابع الفعالية الإنجازية. وتترجم هذه الفعالية اجتماعياً في الواقع في صورة ضمانات اجتماعية يقدمها المجتمع للفرد في أطوار حياته المختلفة.

ولهذا فإن ما يفصل المجتمعات في هذا العصر هو مدى فعاليتها، إذ يوجد تشابه واختلاف بين المجتمعات، والاختلاف اللافت للنظر يكمن فيما يطبع نشاط أي مجتمع من فعالية تتفاوت درجتها من مجتمع إلى آخر. ولنا أن ننظر إلى ما تحققه شعوب مثل اليابان وكوريا والصين وألمانيا، وإلى شعوب أخرى في عالمنا العربي والإسلامي من إهدار للأفكار والأشخاص ولوقت والإمكان.

والفعالية في حقيقتها ليست شيئاً فطرياً مركباً في فطرة هذا المجتمع أو ذاك أو هذه الحضارة أو تلك، بحيث إننا نقف أمامها مستسلمين، معتذرين بأنه لا يوجد في فطرتنا وتركيبنا كروموزوم الفعالية أو جينات الفعالية، إذا أردنا أن نستعير مصطلحات علم الوراثة.

وإنما هي نتاج لتركيب ثقافي معين متحرك في إطار التاريخ، ومرتبط بالوضعية التي يقفها المجتمع من دورة الحضارة، كما يرى مالك بن نبي عليه رحمة الله. ولهذا فإنا نحتاج إلى فعل تربوي ثقافي يعيد تشكيل ثقافتنا لنحقق بها ذلك التركيب الثقافي المنتج الفعال.

ولعل العامل الحاسم في تحقيق الفعالية في أداء أي فرد أو مجتمع هو العامل النفسي، الذي يحفز على الأداء الفعّال من خلال توحيد الهم، وتوجيه الاهتمام، وحشد الطاقات، وقد كان القرآن الكريم هو المحفز والمنتج الأكبر للفعالية في المجتمع الإسلامي في زمن النبوة والصحابة والخلافة الراشدة والسلف الصالح. فقد منح القرآن الكريم لهم الدفعة الروحية، ورفع من طموحاتهم، فغيروا واقعهم وتاريخهم، وبنوا حضارة لم يسبق لها مثيل من قبل.

وإذا التفتنا اليوم إلى واقعنا، نجد أن القرآن هو القرآن، ولكن النفس غير النفس، فواقعنا يناقض تماماً ما نؤمن به. ونجد المسلم الذي يأمره القرآن بالقصد والانضباط ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: من الآية ١٨]، ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [لقمان: من الآية ١٩]، قد فقد فعاليته لأنه فقد توثبه الروحي.

ولعل الكثير من المسلمين، ومن غير المسلمين من عزا ولا يزال يعزو فشلنا وهواننا وسوء أدائنا إلى القرآن الكريم وإلى ديننا الحنيف، مما جعل الكثيرين يشككون في صحة الإسلام، وفي واقعيته وفي قابليته لأن يكون ديناً متحضراً، وأن يكون منبعاً للفعالية وبناء الحضارة.

ولكن الحقيقة -كما يذكر مالك بن نبي- أن الأمر لا يتعلق بصحة الإسلام

وصلاحه، بل يتعلق الأمر بقانون اجتماعي وسنة من سنن التاريخ، وهي تسجيل الفكرة في النفوس، خاصة في هذا العصر الذي طغت عليه المادة والفكر الوضعي. ففي منطق هذا العصر لا يكون إثبات صحة الأفكار بالمستوى الفلسفي أو الأخلاقي، بل بالمستوى العملي. فالأفكار صحيحة -في نظر الكثيرين- إذا هي ضمنت النجاح، وحققت المصالح العاجلة[1].

ولهذا ينبغي علينا تحقيق فعالية الإسلام في الواقع بالرغم من أن التأكيد على أهمية فعالية الإسلام في الواقع لا يستهين بصحة الإسلام في ذاته. غير أن النظر إلى الإسلام في حركة التاريخ، وفي علاقته بالمعطى الاجتماعي، فيه محاولة لإخراج المسلم من المناقشات الجوفاء، والجدل العقيم، والشعارات المفرغة من محتواها، التي تتحدث عن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، في حين أن الإسلام غائب عن قيادة الحياة.

فالنظر إلى الحقيقة الموضوعية، وما يسجله الإسلام في الإطار الاجتماعي من تغيير وصياغة للنفوس، وما يحدثه من أثر في التاريخ أمر مهم في علاج التسيب واللافعالية التي تكتنف حياتنا الفردية والجماعية. كما أن العمل على حل مشكلاتنا في واقعنا بما يأمر به الإسلام، وربط الحلول الإسلامية بالواقع، أمر مركزي وخطوة مهمة تخرجنا من الجدال الأجوف على أمر بيّن.

ذلك أن الإسلام لا يمكن مقارنته بأي دين آخر على مستوى الأصالة الذاتية من أي وجه من الأوجه، في قيمته أو مصدره أو شموليته. لكن الأمر يتعلق بالمسلم الذي انفصل واقعه الاجتماعي عن تأثير الإسلام وإن لم يفقد إيمانه بالله يوما من الأيام.

فنحن لا نحتاج إلى أن نبرهن على الصدق النظري للإسلام، وإنما من خلال صياغة الحياة به كما كان يفعل السلف، وإظهار فعاليتها في الواقع.. من خلال العودة إلى روح الإسلام ومنهجه.

(١) انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، فصل: صلاح الأفكار وصلاحيتها.

وكما يؤكد مالك بن نبي عليه رحمه الله في كتابه (شروط النهضة)، فإن التجربة الإسلامية القدوة التي صاغها النبي ﷺ غيرت المعادلة الاجتماعية للعرب، وأخرجت إنسانا جديدا غيَّر مجرى التاريخ وشاد حضارة خلال نصف قرن، وأنتج أشخاصا أمثال عمار بن ياسر وبلال بن رباح ورِبْعِي بن عامر رضي الله عنهم أجمعين..

من هنا يمكن أن نؤكد أن الفعالية من الناحية الاجتماعية، بمكن تحقيقها من خلال التركيب بين عناصر النهضة، والتي محورها الإنسان، في ضوء هداية منهج مكيف طبقا للنموذج الذي اختاره المجتمع. لأن الفعالية في جوهرها منهج فكري، وليست تكديسا لمنتجات حضارات أخرى. ذلك أن ذهنية "تكديس" الوسائل كما يقول مالك بن نبي أدت بنا إلى هدر كثير من الجهد والوقت حين اتجهنا إلى البحث عن الوسائل المادية، بينما الأمر يتعلق بنمط الثقافة، وما تحدده من مناهج، وما توفره من أفكار وجو فكري، يفعِّل الأداء الاجتماعي للفرد والمجموع.

***

في الحاجة إلى الأصالة والفعالية

لعل من أوضح صور التمزق والتشظي في مستوى الوعي والممارسة في عالمنا الإسلامي اليوم، ذلك الصراع المحموم بين الأصالة وبين الفعالية. حيث يرى الكثير من المسلمين أن الأصالة مقدمة على أي فعل منجز وتنمية وتحضر، ومنهم من يرى أن تحقيق الفعالية مقدم على أي انتماء أو مرجعية أو تراث.

وتبدو الحالة فيها تناقض موهوم، حيث إن الأصالة لا تقتضي غياب الفعالية، والفعالية لا تقتضي غياب الأصالة.

فهل إلى خروج من هذه الحالة من سبيل؟ وكيف نفهم الأصالة؟ وكيف نفهم الفعالية، وكيف نحقق فعالية أصيلة؟

إن الأصالة -كما أفهمها- هي أن الانطلاق يكون من الإسلام في الغاية والعقيدة والقيم والتصورات، لأن الأمة المعنية بالنمو والبناء والحركة هي أمة إسلامية في عقائدها، وفي قيمها وفي تكوينها النفسي والفكري، فأي مشروع نفكر فيه بأفكار البعض ونحاول إنجازه بوسائل البعض الآخر معرض للفشل لا محالة.

والفعالية -كما أفهمها- في أن نتوجه بالحل نحو واقع الأمة المعاصر وقضاياها القائمة.

يقدم مالك بن نبي تحليلا لدور العقيدة في بناء الفعالية والمحافظة عليها بشكل يحقق البناء المستمر والتصحيح المتواصل.

يقول بن نبي في (ميلاد مجتمع): إن القرآن قد وضع ضمير المسلم بين حدين هما: الوعد والوعيد، ومعنى ذلك أنه وضعه في أنسب الظروف التي

يتسنى له فيها أن يجيب على تحد روحي في أساسه. فالوعيد هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثر، والوعد هو الحد الأعلى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا. وبذلك نجد أن الضمير المسلم قد وضع بين حدي العمل المؤثر، وهما الحدان اللذان ينطبقان على مفهوم الآيتين الكريمتين:

أ- ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (وعيد). [الأعراف: من الآية ٩٩]

ب- ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ " (وعد). [يوسف: من الآية ٨٧]

وبين هذين الحدين تقف القوة الروحية متناسبة مع الجهد الفعال الذي يبذله مجتمع يعمل طبقا لأوامر رسالة، أعني طبقا لغايته. فالقوة الروحية التي تتطابق مع العمل المثمر الفعال تقع بين حالين من أحوال النفس، لا يوجد وراءهما إلا الخمول والرخاوة في جانب، واليأس والعجز في جانب آخر.

وفي كتابه (بين الرشاد والتيه) يرى مالك بن نبي أن الفعالية تتحقق بناء على العودة إلى أصالة القرآن والمنهج النبوي في بناء النفوس بناءً يقوم على الربط بين العلم والعمل، فالعلم الذي لا يترجمه عمل يظل ترفا لا مكان له. فالأصالة والفعالية يتحققان من خلال الرجوع إلى الهدي النبوي، في التربية على الجمع بينهما، والموازنة بينهما.

كما أن من الفعالية أن الإنسان يصوغ حلوله وفق معالم مضبوطة يراعي فيها الحال والمآل. فإنه إذا تجاهل هذا الأمر فإن الارتكاس والخطأ، أو التباطؤ والتنكب عن تحقيق الهدف، هي المآلات الحتمية للعمل الارتجالي، غير المرتبط بواقعه وأصوله.

يقول بن نبي في (شروط النهضة): وعليه فلا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته ومركزها، بل عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته. أما أن يستورد حلولا

من الشرق أو الغرب فإن في ذلك تضييعا للجهد ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار. وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية، ناتجة عن فكرة معينة تؤرخ من ميلادها عمليات التطور الاجتماعي في حدود الدورة التي ندرسها. فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية.

فالأصالة هي العودة إلى الذات الإسلامية، العودة إلى السلف الصالح الذين تشكل وفق منهجهم تاريخنا ونبع منه، فعلينا العودة إلى الأصول والمنابع التي منها نبع تاريخنا.

***

الفعل الحضاري.. يحتاج منطقاً عملياً

في لحظة ميلاد المجتمعات والحضارات تكون الدفعة الروحية هي الأساس، وهي ما يفتح الأفق للعمل الذي يغير تاريخ ومصائر الشعوب، أما إذا بدأت لحظة الميلاد بالنقاش البيزنطي وسوق الكلام الفارغ والأفكار التي ليس لها كثافة الواقع ووزنه، فإن تلك الشعوب سرعان ما تدخل في دائرة الفراغ، حيث أنها كلما مشت خطوة انقلبت على عقبيها إلى نقطة البداية، في جدل عقيم، كحمار الرحى لا ينفك يدور في الحلقة نفسها.

وهو ما نشاهده في عالمنا العربي خاصة، إذ كثر المتجادلون وقلّ العاملون، بل أن المشاريع النقدية والاعتراضية، ومشاريع الجدل، وفضاءات الرأي كثيرة، غير أنك إذا أمعنت النظر في المتوجه منها للبناء وتغيير الواقع ومغالبة الظروف وتحمل أعباء ذلك في الواقع بكل إكراهاته ومتغيراته، فإنك قل ما تجد مشروعا مرتبطا بواقع الناس يعمل على تغييره، أو يوفر منطقا للعمل يرفد منطق الأفكار. فصرنا ظاهرة كلامية، أو ما يسميه البعض تندرا "كلامولوجي" كأنه علم خاص بالكلام دون العمل.

ولهذا، لما حاول مالك بن نبي تشخيص أمراض أمتنا، رأى أن من أمراضها أن ثقافتها منذ عصر "ما بعد الموحدين" تفتقد إلى المنطق العملي. وفي هذا يقول مالك بن نبي عن المنطق العملي: "لسنا نعني بالمنطق العملي ذلك الشيء الذي دونت أصوله، ووضعت قواعده منذ أرسطو، وإنما نعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئا، بغير مقياس يستمد معاييره من واقع الوسط الاجتماعي، وما يشتمل عليه من إمكانيات.

إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محددة، غير أنه من النادر جدا أن نعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة. ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق العملي في حياتنا، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فشيء يكاد يكون معدوما" (شروط النهضة، ص٩٥).

إنه هذا المنطق الذي نفتقده، فغاب عنا التوجه لحل مشكلات الواقع، والبحث عن حلول عملية لها أفق نظري ومنطق عملي. وتحولت كل المبادئ والمقولات والقيم الإسلامية إلى مجرد ثقافة كلامية، كما تحول وجودنا الحضاري إلى ظاهرة صوتية، سرعان ما تهب عليها ريح الزمن، فتنسفها نسفا، وتزيلها من على وجه التاريخ.

فصار الواحد منا لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا، بل أكثر من ذلك، فقد صار الواحد منا أحيانا يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول إلى عمل ونشاط، ومن هنا يأتي عقمنا الاجتماعي فنحن حالمون ينقصنا المنطق العملي، كما يقول الأستاذ مالك بن نبي أيضا.

بينما أمم أقل منا امتدادا في التاريخ، وعمقا حضاريا، وثراء في التجربة، سلكت لنفسها طريقا يبسا في بحر الإنجاز ودروب الحضارة، لأنها استطاعت أن تحول أفكارها إلى مشاريع عملية في الواقع، وإلى منجزات تحقق لأبنائها حلولا لما يواجهونه من مشكلات، وتزودهم بمنطق عملي يزودهم بالقدرة على الابداع وتوفير المنتج المادي والمعنوي الذي يحقق تحضرهم وازدهارهم.

لهذا قال ﷺ كما جاء في سنن الترمذي وابن ماده والبيهقي وغيرهم "ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل" ثم قرأ رسول الله ﷺ: ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون.

***

توجيه القرآن إلى فهم سنن التاريخ والواقع

إن المتأمل في القرآن الكريم من جهة، وفي تاريخ التبدل والتداول الحضاري للأمم من جهة أخرى، يجد أن القرآن الكريم - بما أنه كتاب هداية - قد حوى كل ما يحتاجه الإنسان للاهتداء به إلى أن تقوم الساعة.

وإن الدراسة المتأنية للقرآن الكريم تجد فيه زادا معرفيا ومنهجيا مُهِمّا يؤسس لفَهْم حركة الحضارة، وكيفية نشأة الأمم والدول والحضارات وسنن قيامها وسقوطها.

وفي هذا المقام، أود أن أسجل بعض الملاحظات عن السنن التاريخية في القرآن الكريم، من أجل إبراز الأهمية التي أعطاها القرآن لمثل هذه السنن، كذلك لحث الهمم على توظيفها في إحداث التغيير المطلوب منا، من أجل تحقيق نهضتنا ومجد أمتنا وخير الإنسانية.

وإن السنن أو القوانين التاريخية الواردة في القرآن لها أهميتها بالنسبة لما نعيشه محليا ودوليا، وليس الكلام عن سنن القرآن التاريخية بالأمر النظري البحت.

ولعل القارئ يتساءل عن صلة القرآن الكتاب الديني بموضوع التغير التاريخي، وقوانين التداول الحضاري، والعلاقات بين الأمم على المستوى الحضاري.

وهذا الإشكال يزول عندما ندرك مقاصد القرآن في تأسيس الوعي بأن حركة الوجود تقوم على سنن وقوانين ينبغي أن نعيها ونُسخِّرَها، وكما يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة، فإن "السنن هي القانون الذي يحكم الكون، هي القدر الذي شرعه الله لترتيب النتائج على المقدمات، وهو الذي يمثل العدل المطلق والجزاء الأوفى على السعي"، كما يؤكد ذلك الأستاذ عمر عبيد حسنة،

وهـذا إذا وعيناه يمنحنـا قدرة كبـيرة على الفعـل التاريخي المنتـج والإيجابية المسـتمرة.

القرآن ينبه إلى وجود سنن تاريخية:

يقـول إقبـال في كتابـه (تجديـد التفكـير الدينـي في الإسـلام) أن مجـيء الإسـلام: "كان إيذانـا بميـلاد العقـل الاسـتدلالي"، ذلك أن القـرآن الكريـم - كتاب الإسـلام - أرسـى قواعـد النظـر العلمـي، وفتَـح للإنسـان أفـق التفكـير القائـم عـلى المنهـج، والبعيـد عـن الخرافـة.

فالقـرآن رفـض النظـرة الخرافيـة لحركـة التاريخ، وجعل الإنسـان سـيدا قـادرا على تحديد مصيره بناء على تفكيره واختياره الحر، ورفض القرآن أيضا تفسـير حركة التاريخ بناء على الصدفة أو القدرية أو الجبرية والاستسـلام لحركة الواقع دون اتخاذ الأسـباب.

ولذلـك فقـد نبـه القـرآن النـاس إلى وجـود سـنن تحكـم حركـة التاريـخ، لا تتأخـر، ولا تحـابي، ولا تضطـرب، وعـلى مـن يريـد أن يوجـه حركـة التاريـخ لصالحه أن يتعامـل مـع هـذه السـنن فيسـخرها لـه.

إن أمـر القـرآن بالسـير في الأرض والنظـر في بـدأ الخلـق، والتنبيـه إلى تبـدل الأيـام والـدول بـين النـاس، الغـرض منـه تعليـم الإنسـان أن العفويـة والخرافيـة والصدفـة لا وجـود لهـا في عـالم الخلـق وعـالم الأمـر، لا وجـود لهـا أبـداً، وانظـر إلى قولـه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾[الروم:مـن الآيـة ٤٢]، وقولـه تعـالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[العنكبـوت: مـن الآيـة ٢٠]، وغيرهـا مـن الآيـات كلهـا تنبهنـا إلى أن كل شيء خُلِـقَ بقـدر، وهـذه الأقـدار مـا هـي إلا السـنن والقوانـين التـي تحكـم الآفـاق والأنفـس والتاريـخ.

وفي الحقيقـة، فـإن وعـي هـذه السـنن والقوانـين التـي جـاء التنبيـه عليهـا في كتاب الله تعـالى أمـر بالـغ الأهميـة؛ ليـس عـلى المسـتوى النظـري فحسـب، بل على المسـتوى العمـلي مـن خـلال تعاملنـا اليومـي مـع مختلـف أحـداث التاريـخ صغيرهـا وكبيرها.

فَهْم السنن:

وفي عصرنا هذا تداولت علينا أحداث وظواهر بالغة الخطورة؛ نظر إليها الكثير منا على أنها جبر وحتم لا يمكن مقاومته أو التعامل معه، لذلك وقف الناس حيارى أمام ظواهر الاستعمار، والحداثة، والهيمنة الغربية، والحضارة الغربية، والنظام العالمي الجديد، والعولمة، وغيرها، دون أن يتنبهوا إلى أن هذه الظواهر والأحداث لا تخرج عن نطاق عالم الخلق أو عالم الأمر اللذين هما ملك لله تعالى، وأنها لا تخلو من قيامها وفق سنن غاية في الدقة والانتظام.

ومن أجل التعامل معها، لا بد مِن فَهم السنن القائمة عليها، وتطويعها، وتسخيرها لصالح الإنسانية.

ولا ينبغي أن يخامرنا الشك في أن الله تعالى، الذي جعل قوانين في الطبيعة واستطاع الإنسان معرفتها وتسخيرها، قد غفل عن جعل قوانين في الظواهر الاجتماعية المختلفة والأحداث التاريخية وهي مخلوقة له أيضا؛ لذلك علينا أن نكتشف قوانين هذه الظواهر والأحداث وأن نتعرف على سننها لنتحكم فيها ونسخرها حتى لا نقع في الجبرية التي تؤدي إلى اليأس، فإنه ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: من الآية ٨٧]

إن علينا أن نبحث عن سنن الله تعالى في التاريخ التي كشف القرآن الكريم عنها، وأن ندرك تماما أن الأحداث التاريخية تتحكم بها قوانين تاريخية، وعلينا أن ندرس خصائص وطبيعة تلك السنن، ونعرف كيفية التعامل معها وتسخيرها لصالحنا، ذلك أن الله تعالى سخر لنا كل شيء في هذه الدنيا من أجل إنجاز مشروع الاستخلاف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: من الآية ٣٠]، وتحقيق العبودية له سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات: ٣٠]، وهي أسمى غاية خلق لها الإنسان.

***

الدعوة... وإبل المئة

الدعـوة إلى الله – تعـالى – وإلى نهجـه، والعمـل عـلى خدمـة الإسـلام مسـؤولية ملتزمـي خـط النبـوة. ونـصرة ديـن الله وتحقيـق نهضـة الأمـة واسـتعادتها وعيهـا ورشـدها يلزمـه رؤيـة واضحـة، وعمـلاً منهجيًّـا بصـيرًا، وأداء منظـمًا، ومداومـة عـلى الفعـل المنتـج ولـو كان قليـلاً، ذلـك أن "أحـب العمـل إلى الله أدومـه وإن قـلّ"، وأن "المنبـت لا أرضًـا قطـع ولا ظهـراً أبقـى"، كـما تحتـاج الدعـوة إلى النفـرة مصداقًـا لقولـه – تعـالى –: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾[التوبـة: مـن الآيـة ١٢٢].

ولقـد دلتنـا السـيرة النبويـة وسـيرة السـلف الصالـح أن الدعـوة في سـاعات العـسرة لم تجـد إلا أولئـك الذيـن آمنـوا بهـا وأعطوهـا حياتهـم، أمـا الذيـن أعطوهـا فضلـة وقتهـم أو هامشًـا مـن اهتماماتهـم أو تجمعـوا حولهـا في سـاعة الرخـاء؛ فـإن الدعـوة لم تجـد لهـم أثـرًا، ومـن وجدتـه تـراه ينظـر إليك "نظـر المغـشي عليـه مـن المـوت" خوفًـا مـن تحمـل المسـؤولية، وتهربًـا مـن أداء الواجـب، وتنكـرًا لتحمـل نصيـب مـن العـبء.

ولهـذا ميـز الله البدريـين وأصحـاب بيعـة الرضـوان مـن السـابقين الأولـين مـن المهاجريـن والأنصـار عـن غيرهـم مـن المسـلمين؛ لمـا لهـم مـن همـة عاليـة، وإخـلاص للدعـوة، ووعـي بحقيقتهـا، والتـزام بقيمهـا وأهدافهـا، وحفـاظ عـلى محتواهـا العقـدي والأخلاقـي، وتضحيـة في تحقيـق مقاصدهـا الكـبرى، وعمـل عـلى مراعـاة جزئياتهـا المتكاملـة. فـكان أن غفـر الله لهـم ورضي عنهـم وضاعـف لهـم الجـزاء، وخلـد ذكرهـم في العالمـين؛ لأنهـم جيـل أعطـى ولم يأخـذ، وبـذل ولم

ينتظر، ومنح كل وقته وماله وجهده وقواه للدعوة؛ فأفنى ما عنده في سبيل دعوة الله – تعالى – فأعطاه الله وجزاه بما لا يفنى جنة ونعيمًا. فكان بحق جيلاً قرآنيًّا فريدًا كما سماه سيد قطب –عليه رحمة الله–؛ تناغمت طموحاته وآماله وأفكاره وأعماله مع الدعوة الإسلامية، فكان خير أمة أخرجت للناس.

وفي عصرنا هذا تحتاج الدعوة إلى أمثال ذلك الجيل، لأننا في ساعة العسرة، ونحتاج إلى كل جهد، وإلى كل فكرة متسقة مع الدعوة، وإلى كل يد تساعد على سد أي ثغرة، ونحتاج إلى كل واحد من أبناء الإسلام "ليخذِّل عنا ما استطاع" كما قال النبي ﷺ لنعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الأحزاب.

إن الدعوة اليوم في حاجة ماسة إلى جميع أبنائها.. إنها تحتاج إلى جيل ولا تحتاج إلى أفراد، وتحتاج إلى البدريين الذين أعطوا ولم ينتظروا الجزاء الفاني، أكثر مما تحتاج على الطلقاء الذين التحقوا بالدعوة بعد أن استقامت على عودها، وإن كان منهم كثير من النماذج الرائدة.

وأكثر من هذا؛ فإن الدعوة ليست في حاجة إلى الذين إذا رأوها مزهرة منتصرة "قالوا آمنا وهم لا يؤمنون" لا بالدعوة ولا بأهدافها، وإنما هم قناصو فرص، كما لا تحتاج الدعوة إلى أصحاب الأوجه المتعددة حتى لا نقول المنافقين، الذين يقولون "إنا معكم"، "وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون" أو أنهم يعضون الأنامل علينا من الغيظ.

وهذا الذي ينبغي التأكيد عليه أكثر من غيره؛ ذلك أن المنتسبين إلى الدعوة اليوم كثير، ويتكلمون باسمها في كل مجلس، غير أن العاملين لها قليل، أو أقل من القليل. وخاصة عندما تحتاجهم الدعوة ليبذلوا ليس أرواحهم، وليس أموالهم، وليس وقتهم، وليس ذلك كله؛ بل تحتاج الدعوة منهم جزءًا مستقرًّا ومنتظمًا من الوقت والجهد والفكر والبذل.. تحتاج منهم ولو جزءًا ضئيلاً، ولكن ثابتًا ومستقرًّا، ومخصصًا للدعوة بشكل واضح ومنتظم وقصدي.

وهـذا ليـس كثـيرًا عـلى الملايين مـن أبنـاء الإسـلام؛ بل قـد تجـد الكثير ممـن يعتبره أقـل المطلـوب؛ لكـن عمليًّـا، لـن تجـد مـن يخصـص مثـل هـذا الحيـز الوجيـز لإنجاز عمـل ينفـع الأمـة، ويكون هـذا العمـل مسـتمرًّا غـير منبـت ولا متنطـع ولا مزاجي.

وحتـى لا نبقـى نسـبح في إطـار الـكلام النظـري فلنتأمـل أي عمـل جماعـي أو أي مـشروع عـام؛ فإنـا نجـده يعـاني مـن قلـة الباذلـين، ونـدرة المتفرغـين لـه، بـل قـد تحـصي مـن الكفـاءات القـادرة عـلى الأداء والإنجـاز والمسـاهمة العـدد الكثـير، غـير أنـا عنـد سـاعة التنفيـذ والحقيقـة ينفضّـوا مـن حولـك كـما تنفـض قطعـان النعـم إذا رأت الوحـش يهاجمهـا. وكـم مـن المشـاريع الدعويـة توقفـت أو أفلسـت أو لم تسـتطع الاسـتمرار بسـبب قلـة العاملـين وكثـرة المتكلمين "غثـاء كغثـاء السـيل".

ولهـذا فـإن أشـد مـا تعـاني منـه الدعـوة هـو هـذه الغثائيـة التـي لا تـكاد تفـرز منهـا مـا ينفـع وكأنها "إبـل المئـة لا تجـد فيهـا راحلـة"؛ فمتـى تـزول هـذه الظاهـرة السـلبية ونشـهد ميـلاد جيـل جديـد يؤمـن بـأن تغيـير مسـار التاريـخ يحتـاج إلى ميزانيـة ضخمـة مـن الأفـكار والأفعـال التـي تحمـل كثافـة الواقـع، ونصـل إلى الإيجابيـة الرسـالية التـي كان عليهـا ربعـي بـن عامـر.. ذلـك الرمـز الـذي يمثـل وضـوح الهـدف، وسـعة الرؤيـة، والتصميـم عـلى الفعـل، والصـدق في التوجـه، والحـرص عـلى الإنجـاز، لنخـرج أنفسـنا وغيرنا "مـن عبـادة العبـاد إلى عبـادة رب العبـاد، ومـن جـور الأديـان إلى عـدل الإسـلام ومـن ضيـق الدنيـا إلى سـعة الدنيـا والآخـرة"؟ وتلـك لعمـري حقيقـة الدعـوة وحقيقـة الدعـاة وليسـت إبـل المئـة التـي لا تـكاد تفـرز منهـا ناقـة واحـدة تحمـل عليهـا همـوم الدعـوة والأمـة التـي تراكمـت دهـرًا طويـلاً!.

***

في الحاجة إلى حماية الإسلام والمحافظة على أبنائه

في كتابه القيّم (الصراع الفكري) كتب مالك بن نبي -يرحمه الله- منذ أكثر من نصف قرن يبين طرق قوى ومراكز الصراع العالمية في قتل الأفكار والمشاريع في العالم الإسلامي، وذكر بأن هذه القوى تمارس مجموعة من الخطوات المتنوعة تتمثل الأولى في محاولة تشويه الفكرة ذاتها، فإذا فشلت هذه الخطوة، فإنها تعمل على تخوين أصحاب الفكرة ذاتها لفكرتهم من خلال الوعد والوعيد أو من خلال تشويههم أمام الرأي العام المناصر لهم وللفكرة، فإذا فشلت هذه الخطوة، فإن الخطوة الثالثة هي تخوين الرأي العام ذاته للفكرة ولأصحاب الفكرة، وذلك من خلال إدخالهم في اهتمامات أخرى تبعدهم عن جوهر الفكرة الأساسية، أو من خلال إشعارهم بفقدان الجدوى منها أو عدم أهميتها. وهي خطوات وآليات متصلة ببعضها البعض، قد تكون متتالية الوقوع والتنفيذ، وقد تكون متزامنة، وذلك حسب حالة التلاحم بين الفكرة وأصحابها والجمهور المناصر لها.

ولعل هذا ينبه إلى موضوع المحافظة على الإسلام ومنجزات الدعوة الإسلامية وحماية إطارها المرجعي، لكي لا يقع له تحريف المبطلين، ولا انتحال الجاهلين، ولا تأويل الغالين. وهي مشكلة عويصة نواجهها في عصر العولمة هذا، الذي تكالبت فيه قوى البغي على أمتنا وديننا، وعلى جهود الصحوة وتريد أن تأتي على بنيانها من القواعد.

فإذا أردنا أن يستمر الإسلام أصيلا، وأن تزهر الدعوة، وتؤتي أكلها في هداية الناس وتحقيق النهضة، فإننا ينبغي أن نضع مشكلة حماية مضمون الإسلام في بؤرة أفكارنا وتخطيطنا ومشاريعنا.

وقد لفت الأنظار إلى هذا الموضوع كثير من أعلام الصحوة قديماً وحديثاً، ومن بينهم الأستاذ الشيخ الطيب برغوث أحد قادة ورواد الصحوة في المغرب العربي، وصاحب كتاب "حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها"، والذي نشر منذ عدة سنوات. حيث نبّه فيه إلى الاستفادة والتأمل في الدعوة النبوية في المرحلة المكية حين كان النبي ﷺ يحافظ على الدعوة في محتواها وفي أفرادها، ذلك أن التجربة النبوية القدوة تمثل منهجاً ينبغي أن يتم التأسي به، بل يلزم العلماء والدعاة والمفكرين والعاملين للإسلام أن يرتقوا بفهمهم وأدائهم الرسالي إلى مستوى الاقتداء بالتجربة النبوية القدوة.

ولعل هذا يعطينا زاوية أخرى للنظر إلى التجربة النبوية القدوة، من خلال تأمل السيرة وجعلها محلاً للدرس والاستفادة في استخراج النواظم المنهجية والآليات التي وظفها النبي ﷺ في حماية الدعوة ورجالها من التشويه والتحريف والاختزال، وحماية مضمونها ومرجعيتها وقيمها.

والعمل للإسلام في هذه المرحلة العصيبة التي قُلبت فيها المفاهيم، وظهر فيها الطيب شريراً والشرير طيباً، وفي هذه المرحلة التي يريد أن يُفهمنا فيها كثير من أعداء الإسلام أن الدعوة إلى التوحيد والتزام السنة تطرّف، وأن التزام الإسلام منهجا في الحياة رجعية وتخلف، وأن التحلل من الإسلام ومهاجمته ومحاربة أبنائه تحرر واعتدال.

في هذا الظرف ينبغي علينا أن ننظر بنظرة كلية للتجربة النبوية القدوة لنستفيد منها في الوصول إلى منهجية سليمة للعمل للإسلام، "تضمن عدم تسرب الخلل إلى مضمونه المرجعي، وحمايته من التشويه، والتحريف، والاختزال في كل مراحل الطريق، وضمان روح الاستمرارية، والمحافظة على المنجزات، واستثمارها بفاعلية".

وإذا نظرنا إلى السيرة النبوية فإنها تسجل لنا بعض التحديات التي واجهتها

الدعـوة في مضمونهـا وفي قياداتهـا وفي قاعدتهـا؛ ففـي مسـتوى الدعـوة وقيادتهـا كان مشركـو قريـش يحاولـون النيـل مـن مصداقيـة الدعـوة ومصداقيـة النبـي ﷺ فاتهموه بأنـه شـاعر ومجنـون وسـاحر، وغيرهـا مـن التهـم، وحاولـوا عزلـه عليـه الصـلاة والسـلام وتركـه يواجههـم وحـده، مـن خـلال محاولـة اسـتمالة عمـه أبي طالـب وبنـي هاشـم ترغيبـاً وترهيبـاً.

كـما أنهـم حاولـوا إظهـار الدعـوة الإسـلامية والنبـي ﷺ بمظهـر العجـز، وعـدم امتـلاك مـشروع حقيقـي مـن خـلال محاولـة تقديـم أسـئلة تعجيزيـة، وتصعيـد وتائـر الاضطهـاد والإيـذاء، ثـم في محاولـة خنـق الدعـوة وأهدافهـا.

لكـن النبـي ﷺ أبـدى عنايـة كبـيرة بالمحافظـة عـلى الدعـوة ورجالهـا الأوائـل من التبديـد والهـدر، واسـتطاع أن يصمـد هـو وأصحابـه في وجـه محـاولات الاحتـواء والضغـوط والمعانـاة.

كـما تعامـل النبـي ﷺ وأصحابـه بحكمـة ومرونـة مـع معطيـات الواقـع بـما يضمـن حمايـة الدعـوة والسـير قدمـاً نحـو الأهـداف المنشـودة. وهـي مرونـة منضبطـة وعـت سـلطان القبيلـة وعاداتهـا، واسـتفادت منـه. كـما اسـتفادت قيـادة الدعـوة مـن تناقضـات القـوى المضـادة. واسـتمرت عـلى ثبـات سـيرتها وانسـجامها مـع أطروحـات الدعـوة، وحرصـت عـلى ضـمان اسـتمراريتها.

كـما كان النبـي ﷺ عـلى وعـي بـما تتعـرض لـه قاعـدة الدعـوة مـن الذيـن أسـلموا مـن مختلـف الطبقـات الاجتماعيـة ومختلـف الأجنـاس والأعـمار والأماكـن. وكان عـلى وعـي بالـصراع الـذي يُـراد لـه الدخـول فيـه وإدخـال المسـلمين فيـه، وتحاشـى الدخـول في صراع غـير متكافـئ مـع القـوى المضـادة للدعـوة، واسـتطاع ضبـط أعصـاب أصحابـه وتثبيتهـم في وجـه عنـف المواجهـة وطولهـا، ولم يكـن عليـه الصـلاة والسـلام يسـمح لأتباعـه وأصحابـه بالدخـول في المواجهـة، بـل كان يوصيهـم بالصـبر والابتعـاد قـدر الإمـكان عنهـا.

بل إن عملية التربية التي كان يتعهدهم بها كانت تركز على عدم الدخول في صراع غير متكافئ مع أي قوى مضادة، وإبعاد أتباعه عن جوّ الصراع، وتربيتهم على توطين أنفسهم على الانضباط النفسي، وضبط الأعصاب، ومواصلة الاحتكاك بالمجتمع، والدعوة والدفع بالتي هي أحسن.

هل يقال: إن ذلك كان النبي ﷺ، وأنه كان مؤيداً بالوحي؟ وهل يُقال: إن المكان غير المكان، والزمان غير الزمان؟

إذن ما فائدة النبوة؟ وما فائدة الاتباع؟ وما فائدة التأسي والاقتداء به ﷺ إذا لم نتعلم منه دروساً في بعث نهضتنا من جديد، وفي استعادة المبادرة؟

وما الفائدة من قصر الاتّباع على الاتّباع في الأحكام الجزئية من وضوء ولباس وحلق ومشي، وترك المجالات الأخرى من التأسي والاقتداء به؟ أليس فيه طعن في سنته عليه الصلاة والسلام واتهام للإسلام بالقصور؟

لا شك أن محمداً ﷺ الذي علّمنا الصلاة والزكاة والحج والصوم، هو نفسه محمد النبي ﷺ الذي علّمنا كيف ندعو، وكيف نحل مشكلاتنا الاجتماعية والنفسية والفكرية والسياسية، وهو النبي نفسه ﷺ الذي ينبغي أن نتعلم منه ونقتدي به في كيفية حماية العمل للإسلام في هذا الزمان، الذي يشبه إلى حد كبير الزمن المكي الذي كان فيه النبي ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم يجاهدون في ضبط أنفسهم، وحماية دعوتهم، وتعريف الناس بالوحي، وبحياة الإيمان التي بها حياة الأمم والمجتمعات.

وما نختم به القول، هو الرجاء أن يتنبه العاملون للإسلام -من علماء ومفكرين ورجال دولة وسياسيين، إلى طرائق التشويه والتحريف والانتحال التي تُحاك ضد هذا الدين وهذه الأمة، كما ينبغي أن يستفيدوا من الطرائق التي ابتكرها جيل الإسلام الأول في مواجهتها، وما أبدعته خبرة الأمة التاريخية في حماية الإسلام والمسلمين، فننجو كما نجَوْا، وننجح كما نجحوا.

***

حبّ النبي باتباع سنته واستلهام سيرته

بمناسبة دخول شهر ربيع الأول؛ الشهر الذي وُلد فيه النبي ﷺ، سألني أحد طلبتي: كيف أحب رسول الله ﷺ؟

فأجبته بقولي: اعرفه تحبه.

وإذا أردت أن تعرفه فعليك بالقرآن، وعليك بمدارسة السنة النبوية والسيرة العطرة. لأنه ﷺ يمثل النموذج الأمثل لتحقيق الصلاح، والاهتداء بالهدى، والنجاح في الحياة، وتحقيق رضا الله سبحانه، وهو نموذج عملي نعرف تفاصيله صغيرها وكبيرها.

فالنبي ﷺ باعتباره القدوة الحسنة المرتضاة من الله تعالى لكافة البشر، نحتاج أن نعيشها في واقعنا من خلال معرفته في سيرته وسنته ﷺ. فهو صلوات الله وسلامه عليه، جمع الفضائل كلها، والمكارم جميعها، والمحامد بأكملها، إليه ينتهي الخير، وفيه تأصل البر، وعلى يديه فاض النور، وأشرقت الهداية، وبه أنقذ الله البشرية، وأخرجها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الطواغيت إلى عدل الإسلام.

سيرته أجمل السير

ومن أجل ذلك كانت سيرته من أجمل السير، وصفاته من أنبل الصفات، وأخلاقه من أعظم الأخلاق، وحياته من أروع الحياة وأوفاها وأشملها.

نعم إن التاريخ الإنساني على وجه الأرض لم يعرف عظيما من العظماء ولا زعيما من الزعماء ولا مصلحا من المصلحين استوعب في صفاته الذاتية والعقلية

والنفسية والخلقية والدينية والروحية والاجتماعية والإدارية والعسكرية والتربوية ما استوعبته شخصية النبي محمد ﷺ، وما اختصه الله به من الكمالات التي تشرق في كل جانب من جوانبها، وتضيء في كل لمحة من لمحاتها، حتى استحق أن يصفه الله عز وجل بالنور في مثل قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [سورة المائدة: ١٥].

ولا عجب في ذلك، فقد أرسله الله للناس كافة، قدوة صالحة لهم، ورحمة للعالمين. وهو القائل عن نفسه (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) كما جاء في الحديث.

كان قرآناً يمشي

فرسول الله ﷺ منذ أن بعثه الله عز وجل للناس نبيا ورسولا كانت حياته صورة صادقة للدين الذي جاء به من عند الله، وما أجمل ما وصفته عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عنه، فقالت (كان خلقه القرآن). أي أنه كان قرآنا حيا متحركا ملتزما بأحكامه، عاملا بتوجيهاته، متبعا لهديه، ومنتهيا عند نهيه، يدعو إلى نوره، ويحتكم إلى شريعته، من أجل ذلك قال الله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[سورة الأحزاب: ٢١]، فهو القدوة إلى الخير والأسوة بين الناس إلى رضوان الله. وأيما دعوة من الدعوات، لا يتأتَّ لها النجاح والانتشار ما لم يكن لها من أصحابها والداعين إليها قدوة صالحة في التطبيق العملي لتلك الدعوة في أخلاقهم وسلوكهم ومواقفهم في الحياة.

النبي هو المثل الأعلى لكل مسلم

لقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في ذلك، فقد صنعه الله على عينه، وأدبه فأحسن تأديبه، وأعده لحمل رسالته وتبليغ دعوته وإخلاص العبودية لرب العالمين قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الشورى: ٥٢].

وسيرته ﷺ العطرة سجل حافل بالمآثر مليء بالمكرمات، مفعم بالفضائل، إنه كنز المواعظ والعبر، ومدخر الدروس التي تنبض بالنور، ترشد إلى الخير، وتوقظ الهمم، وتشحذ العزائم، وتذكي الإيمان، وترسم الطريق إلى مرضاة الله، وتضع المعالم أمام الدعاة والمصلحين، وتجسم القيم العليا والمبادئ الرفيعة في شخص النبي ﷺ، واقعا محسوسا، وحياة كريمة فاضلة.

الإعلام وتشويه صورته ﷺ

فما نقرأه عما يُنشر عنه في العالم الآخر من معلومات مغلوطة وكاذبة؛ وذلك باتهامه ﷺ بأنه رجل حرب ونهب وسلب، وأنه كان غليظ القلب، وأن الدين الذي جاء به دين العنف والرهبة والقتال، وصار بعض الرموز عندهم يُنعتون بأنهم رجال المحبة والرحمة والسلام، وتناسى الناس في زحمة الكذب الإعلامي والتزوير في الحقائق التاريخية والدينية والثقافية شخصية النبي ﷺ تلك الشخصية التي نالت القدر الأوفى من كل الشمائل والخصال النبيلة، والقيم الإنسانية العليا.

النبي وتحرير الإنسان

لقد كان ميلاد محمد ﷺ إيذاناً ببدء ثورة شاملة، حررت الإنسان والزمان والمكان، ورفعت عنها إصر عبوديات وأغلال كثيرة كانت تعيق انطلاقها جميعاً، فأخذ الإنسان حريته بيده، وصاغ هوية زمانه ومكانه صياغة جديدة، فجرت عناصر الخير في كل شيء، كان احتجاجاً قبلياً على كل عناصر الخير، فوقف الإنسان على ربوة التاريخ يسدّد خطواته نحو الأشرف والأفضل، ووقف المكان ليُلهم ويحتضن وينبت الأروع والأنصع، ووقف الزمان ليفسح ويتيح للأكمل والأشمل!

وُلد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسّم وثناء

ولقد شكلت شخصية محمد ﷺ الرجل الذي اكتملت فيه كل الأخلاق الحميدة، وانتفت منه كل الأخلاق الذميمة؛ ولذلك خاطبنا الله بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

سيرته حقيقة تاريخية

والمطّلع على سيرة النبي محمد ﷺ يدرك أنها كانت حقيقة تاريخية لا تجد الإنسانية غيره قدوة حسنة تقتدي بها، وهي تتلمس طريقها نحو عالم أكمل وأمثل، وحياة فُضلى، ومن الطبيعي ألا تجد الإنسانية مَثَلها الأعلى في شخصيات وهمية، وإلا فهي تضلّ طريقها المستقيم وتسير مقتدية بالخيال والأوهام، فمن حقنا إذن أن نتخذ من سيرة النبي ﷺ نموذجاً لسلوكنا في حياتنا.

وحياة محمد ﷺ تكشف أمامنا المثل الأعلى في جميع أحوال الحياة، في السلم والحرب، في الحياة الزوجية، مع الأهل والأصحاب، في الإدارة والرئاسة والحكم والسياسة، في البلاغ والبيان، بل في كل أوجه الحياة. فمحمد ﷺ هو المثل الكامل كما يقول الشيخ أبوزهرة. ولن تجد الإنسانية في غيره مثلاً حياً لها؛ فسيرة محمد ﷺ حقيقة تاريخية، يصدّقها التاريخ الصحيح ولا يتنكر لها، وهي سيرة جامعة محيطة بجميع أطوار الحياة وأحوالها وشؤونها، وهي سيرة متسلسلة لا تنقص شيئاً من حلقات الحياة، وهي أيضاً سيرة عملية قابلة للتطبيق، ذلك أن ما كان يدعو إليه محمد ﷺ في القرآن والحديث كان يحققه بسيرته أولاً، وهذا ما شهد به معاصروه، فقالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن أخلاقه ﷺ: (كان خلقه القرآن). فهو قدوة الرجال وحبيب الله، ورحمة العالمين، وأساس سِلْمِ العالم محمد ﷺ.

وفي الختام

فإن هناك الحاجة إلى تأكيد أهمية السيرة النبوية، بوصفها تطبيقا للقرآن

الكريم، وتجسيداً لأحكامه وتوجيهاته، لأنها تمثل التطبيق العملي للمنهج الأمثل لبناء الشخصية المسلمة. فالسيرة والسنة النبوية مدخل مفتاحي، لتحقيق الوعي بالقرآن، وبدونها يتعذر التعامل المنهجي معه. لهذا هناك تلازم بين تحقيق شخصية إسلامية وبين السيرة والسنة النبوية المطهرة؛ أي لا يمكن الحديث عن تدين صحيح دون حضور السيرة والسنة النبوية في فهمنا ومناهجنا وحياتنا العلمية والعملية.

***

بل نبي الرحمة والمحبة والسلام

بين يدي خير الأنام ﷺ:

كلامنا في هذا المقال سينصب على موضوع شخصية النبي ﷺ باعتباره القدوة الحسنة المرتضاة من الله تعالى لكافة البشر، هذه الشخصية التي يُراد لها في وسائل الإعلام خاصة أن تبقى باهتة، في حين يُطبّل لأناس لا يتوفر فيهم معشار جزء من خلقه وأخلاقه ﷺ. وخاصة منذ أحداث ٩/١١ وما تلاها من هجوم على الإسلام والمسلمين، واتهامهم بل واتهام النبي ﷺ بأنه رجل حرب ونهب وسلب، وأنه كان غليظ القلب، وأن الإسلام دين العنف والرهبة والقتال، وصار رموز الكنيسة وغيرهم من رموز الأديان الأخرى يُنعتون بأنهم رجال المحبة والرحمة والسلام، وتناسى الناس في زحمة الكذب الإعلامي والتزوير في الحقائق التاريخية والدينية والثقافية شخصية النبي ﷺ تلك الشخصية التي نالت القدر الأوفى من كل الشمائل والخلال النبيلة، والقيم الإنسانية العليا.

لقد كان ميلاد محمد ﷺ إيذاناً ببدء ثورة شاملة، حررت الإنسان والزمان والمكان، ورفعت عنها إصر عبوديات وأغلال كثيرة كانت تعيق انطلاقها جميعاً، فأخذ الإنسان حريته بيده، وصاغ هوية زمانه ومكانه صياغة جديدة، فجرت عناصر الخير في كل شيء، كان احتجاجاً قبلياً على كل عناصر الخير، فوقف الإنسان على ربوة التاريخ يسدّد خطواته نحو الأشرف والأفضل، ووقف المكان ليُلهم ويحتضن وينبت الأروع والأنصع، ووقف الزمان ليفسح ويتيح للأكمل والأشمل!

وُلد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسّم وثناء

ولقد شكلت شخصية محمد ﷺ الرجل الذي اكتملت فيه كل الأخلاق الحميدة، وانتفت منه كل الأخلاق الذميمة، ولذلك خاطبنا الله بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]. والمطّلع على سيرة النبي محمد ﷺ يدرك أنها كانت حقيقة تاريخية لا تجد الإنسانية غيره قدوة حسنة تقتدي بها، وهي تتلمس طريقها نحو عالم أكمل وأمثل، وحياة فُضلى، ومن الطبيعي ألا تجد الإنسانية مثلها الأعلى في شخصيات وهمية، وإلا فهي تضلّ طريقها المستقيم وتسير مقتدية بالخيال والأوهام، فمن حقنا إذاً أن نتخذ من سيرة النبي ﷺ نموذجاً لسلوكنا في حياتنا.

وحياة محمد ﷺ تكشف أمامنا المثل الأعلى في جميع أحوال الحياة؛ في السلم والحرب، في الحياة الزوجية، مع الأهل والأصحاب، في الإدارة والرئاسة والحكم والسياسة، في البلاغ والبيان، بل في كل أوجه الحياة. فمحمد ﷺ هو المثل الكامل.

ولن تجد الإنسانية في غيره مثلاً حياً لها؛ فسيرة محمد ﷺ حقيقة تاريخية، يصدّقها التاريخ الصحيح ولا يتنكر لها، وهي سيرة جامعة محيطة بجميع أطوار الحياة وأحوالها وشؤونها، وهي سيرة متسلسلة لا تنقص شيئاً من حلقات الحياة، وهي أيضاً سيرة عملية قابلة للتطبيق، ذلك أن ما كان يدعو إليه محمد ﷺ في القرآن والحديث كان يحققه بسيرته أولاً، وهذا ما شهد به معاصروه، فقالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن أخلاقه ﷺ: (كان خلقه القرآن)[1].

وفي مقالنا هذا، نحاول أن نتكلم عن خلال ثلاث هي الرحمة والمحبة والسلام، وتخصيصنا لهذه الخلال الثلاث بالحديث يأتي من محاولة كثير من الجهات ادّعاءها بهتاناً وزوراً، وقد كثر الحديث منذ أحداث ١١/ ٩ عنها

(١) مجلة "حضارة الإسلام" المجلد الأول، العدد السابع، السنة الأولى، ١٩٦٠-١٩٦١، ص ٦٣-٦٩.

ونسبتها إلى أي دين آخر ما عدا الإسلام، وكذلك نسبتها إلى أي شخصية أخرى ماعدا سيد الخلق وقدوة الرجال وحبيب الله ورحمة العالمين وأساس سلم العالم محمد ﷺ.

محمد الرحمة المهداة

إن رحمة النبي ﷺ بُعد مهم في شخصيته، وفي دعوته، ومن صميم شخصيته رسولاً ونبياً ومبلغاً عن ربه وهادياً للناس. وحينما نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ونقف أمام الآية ندرك سعة رحمة هذا النبي الكريم، وكيف كان ﷺ يفيض رحمة في خلقه وسلوكه وأدبه وشمائله. وإنه لتناسب وتآلف في أرقى مستوياته بين الرسالة والرسول في هذه الرحمة، حتى لا يُتصور أن يحمل عبء بلاغ هذه الرحمة إلى العالمين إلا رسول رحيم ذو رحمة عامة شاملة فياضة طبع عليها ذوقه ووجدانه، وصيغ بها قلبه وفطرته..﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]. فهو مثل أعلى للرحمة الإلهية لذلك وصفه الله تعالى بأنه رؤوف رحيم.

لقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين.. رحمة شاملة للوجود بأجمعه. يستطيع المؤمنون الاستفادة من الرحمة التي كان يمثلها النبي ﷺ ذلك لأنه ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ويستطيع الكافرون والمنافقون أيضاً -إلى جانب المؤمنين - الاستفادة من هذه الرحمة كذلك. فعندما قيل له: ادع على المشركين قال ﷺ: "إني لم أُبعث لعانًا، وإنما بُعثت رحمة" (رواه الترمذي).

كما أن رحمته شملت أسرته وأمته وأصحابه، فقد كان ﷺ خير الناس وخيرهم لأهله وخيرهم لأمته، من طيب كلامه، وحُسن معاشرة زوجاته بالإكرام والاحترام، حيث قال ﷺ: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) (رواه مسلم)، كما أنه في تعامله مع أهله وزوجه كان يُحسن إليهم، ويرأف بهم

ويتلطّف إليهم ويتودّد إليهم، فكان يمازح أهله ويلاطفهم ويداعبهم. كما كان يعين أهله ويساعدهم في أمورهم ويكون في حاجتهم، وكانت عائشة تغتسل معه ﷺ من إناءٍ واحد، فيقول لها: (دعي لي)، وتقول له: دع لي. (رواه الشيخان).

وكان ﷺ رحيماً بالجميع، بل إنه يسمع بكاء الصبي فيسرع في الصلاة مخافة أن تفتتن أمه. و كان ﷺ - كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم- يمر بالصبيان فيسلم عليهم. وجاء الحسن والحسين، وهما ابنا ابنته وهو يخطب الناس فجعلا يمشيان ويعثران فنزل النبي ﷺ من المنبر، فحملهما حتى ووضعهما بين يديه، ثم قال صدق الله ورسوله ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [لأنفال:٢٨] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان فيعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما.

فرحمة النبي ﷺ جعلته لطيفاً رحيماً، فلم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً، ولا صخّاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. بل - كما جاء في موطأ مالك- أن سيدنا أنس رضي الله عنه يقول: (خدمت النبي ﷺ عشر سنين، والله ما قال أفّ قط، ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا)، وعن عائشة رضي الله عنها كما يروي الترمذي في سننه أنها قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ خادماً له، ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله). وفي رواية "ما ضرب رسول الله شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله" .

ولذلك قال فيه القرآن الكريم: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فقد كان منهجه الرحمة بالعباد والتخفيف من الإصر والغلال التي عليهم، وهو في هذا يقول ﷺ: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" (رواه مسلم).

وتتجلّى رحمته ﷺ بالمذنبين، وبمن لا يعرفون كيف تقضى الأمور فيعفو ويصفح ويعلم، عن أنس بن مالك ﷺ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَه مَه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزرموه، دعوه) ، فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: "إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله، والصلاة، وقراءة القرآن" قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنّه عليه" (رواه البخاري).

كانت رحمة النبي ﷺ قبل غضبه، بل إنه في الحرب كان يقاتل بشجاعة، ولكنه أيضاً كان صاحب شفقة عظيمة، كان سياسياً، ولكنه في الوقت نفسه صاحب مروءة كبيرة وقلب كبير. ففي غزوة أحد - كما جاء في سيرة ابن هشام- استشهد عمه حمزة أسد الله ورسوله ﷺ، ومُزّق جسده تمزيقاً. كما مُزّق جسد ابن عمته عبد الله بن جحش تمزيقاً. وكما جاء في صحيح البخاري أنه شُجّ رأسه المبارك ﷺ، وكُسِرت رباعيّته، وغطّى الدم جسده الشريف.

وبينما كان المشركون جادّين في حملتهم لقتله كان أكثر رحمة بهم، وكان يدعو: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"(رواه البخاري). فهل يوجد أرحم من محمد في مثل هذه اللحظات.

وفي فتح مكة كيف تعامل مع من أخرجوه وظاهروا على إخراجه وإيذائه؟ وكيف تعامل مع من حاصروه في شعب أبي طالب وتسببوا في وفاة أحب زوجاته إليه خديجة الكبرى ﷺ، وفي وفاة عمه أبي طالب؟ فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عداوة وبغضاً؟

لقد دخل مكة بعشرة آلاف مقاتل، دخل على مركبه، والدرع على صدره، والمغفر على رأسه، والسيف في يده، والنبال على ظهره، ولكنه مع كل مظاهر لباس الحرب هذه كان أنموذجاً للرحمة.

وكما جاء في سيرة ابن هشام، وما رواه الترمذي أنه ﷺ سأل أهل مكة: "ما ترون أني فاعل بكم؟" فأجابوه: "خيراً أخٌ كريمٌ وابن أخ كريم" فقال لهم ما قاله يوسف عليه السلام لإخوته: (لا تثريبَ عليكم اليوم يَغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) (يوسف: ٩٢) لقد قال لهم: "اذهبوا فأنتم الطُلَقاء".

هذا هو محمد النبي ﷺ وهذه رحمته التي شملت كل الناس، واستمرت ولا زالت دستوراً هادياً إلى أن تقوم الساعة، وليست تلك الرحمة الكاذبة التي تأتي ردود أفعال من أناس يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، كما أنها ليس تلك الرحمة ذات الوجهين التي تُطبّق على البعض، ويُحرم منها البعض، كما نراه في كثير من الشخصيات والنظم والقوانين الدولية والمحلية، التي تحاكم آخرين وتستثني آخرين. أو تلك المؤسسات والشخصيات التي ترأف وترحم الحيوان، ولكنها تشرّع لظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

أم لم يعرفوا رسولهم؟

يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩]، هذه الآية تشكل في الحقيقة مسوغًا هاماً لنا في تناول شخصية النبي ﷺ ذلك أن معرفة رسول الله ﷺ في سيرته وفي سنته وفي شمائله من أهم الأمور التربوية التي تساعدنا على الاقتداء به ﷺ. فإنه لا توجد سيرة أخرى أجدى بأن تُقتدى ويُحتفل بها مثل سيرته ﷺ. وفي تاريخ البشرية كلها لا نجد حياةً نُقلت إلينا تفاصيلها، وحُفظت لنا وقائعها في وضوح كامل، وتفصيل عميم شامل كما حُفظت، وكما نُقلت إلينا حياة محمد بن عبد الله ﷺ رسول الله ورحمته المهداة إلى الناس أجمعين، فكل كلمة قالها، وكل خطوة خطاها، وكل بسمة تألّقت على محيّاه، وكل دمعة تحدرت من مآقيه، وكل مسعًى سار لتحقيقه، وكل مشاهد حياته حتى ما كان منها من خاصة أمره، وأسرار بيته، وأهله، نُقل إلينا موثّقاً بأصدق ما عرف التاريخ الإنساني من توثيق وتدوين.

ولا عجب في هذا، فمادام الله قد اختاره ليختم به النبوة والأنبياء، فمن الطبيعي أن تكون حياته منهجاً جليلاً لأجيال لا منتهى لأعدادها، وأن تكون هذه الحياة بكل تفاصيلها أشد وضوحاً، وتألقاً من فلق الصبح ورابعة النهار، لا بالنسبة إلى عصره فحسب، بل بالنسبة إلى كل العصور والأجيال.

إن حياة النبي ﷺ وشمائله، وجوانب شخصيته، ونتائج دعوته درس لكل سالك إلى طريق الله، وكل قائد أو مربٍّ أو رب أسرة أو سالك أي سبيل من سبل الخير إلى أن ينقطع الزمان.

وفي الحلقة السابقة تناولنا صفة الرحمة في شخصية النبي ﷺ وفي هذه الحلقة ننتقل إلى صفة أخرى لا تقلّ تميّزاً عن الأولى، ولكن تسلك بنا طريقاً آخر لإدراك أحد أهم أبعاد شخصيته ﷺ، وهو المحبة. فكيف كان النبي ﷺ رجل محبة؟ وما هي الجوانب التي شملها هذا الخلق العظيم؟ وما موقفنا نحن تجاه محبته؟

منهجه يدعو إلى مجتمع المحبة:

إنها لصورة قاتمة باهتة مخيفة تلك التي رسمها البعض للإسلام في أذهان الناس حتى صاروا يخافون من الدين ومن التدين؛ لأنهم يظنونه شيئاً قاسياً لا يرحم، وأتباعه غلاظ لا يلينون، وأحكامه سيف قاطع على الرؤوس.

وقد استثمر المستشرقون الموقف، واتهموا النبي ﷺ والإسلام بالحقد والكراهية، وكل أوصاف التجهم والتعصب والعنف، حتى لكأنها صارت حقيقة، وأُسقط في أيدينا، وظن بعضنا أن هذا الزيف حقيقة.

ولكن الحقيقة أن النبي ﷺ نور يُستضاء به في ظلام الجاهلية، ومحبة خالصة تؤلف بين القلوب، وأن الإسلام شمس مضيئة أنارت ظلام الجاهلية، وهو دين الحب والأمل و الحياة واليسر، و شرائعه هي شرائع الحق والعدل، وأحكامه هي أحكام الحياة.

وللقيمة الرفيعة لخلق الحب والمحبة في الحياة، وأهميته في تحقيق السعادة للفرد والأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية، فإن النبي ﷺ سعى لتحقيقه بوسائل متعددة، وربّى أصحابه وأمته على هذه النفسية الراقية، وحث على إشاعته بين الناس، ببناء كل العلاقات على أساس من الحب؛ حبّ الله، وحب الخير، وحب الصلاح والصالحين، وحب الإنسانية.

وبعبارة أخرى فإن نهجه ﷺ، وحياته كلها دعوة للتحابب. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه مسلم في كتاب الإيمان: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم".

وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل. وشاب نشأ بعبادة الله. ورجل قلبه معلّق في المساجد. ورجلان تحابّا في الله: اجتمعا عليه وتفرّقا عليه. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله. ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله. ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه". فمن الناس الذين يصلون إلى تلك المرتبة العالية يوم القيامة (ورجلان تحابا في الله) فاجتمعا على حب الله وافترقا على حبه. بمعنى أن سبب اجتماعهما حب الله، واستمرا على ذلك حتى قضى الله أمراً كان مفعولاً فتفرّقا بموت أو سفر أو غيره، وهما صادقان في حبّ كل واحد منهما صاحبه لله تعالى، حال اجتماعهما وافتراقهما.

ليس هذا فحسب، بل إن شرائع الإسلام وأحكامه كلها دعوة للمحبة، فالزكاة مثلاً التي هي قرينة الصلاة وجوباً وأهمية، فإن المستفيد منها وهو الفقير يشعر بأنه ليس وحده في المجتمع، وإنما هو فرد في جماعة لا تنساه وتكفله، ومن هنا تتلاشى الأحقاد وتنبت المحبة والألفة، وهكذا تكون

الجماعة كالجسد الواحد، الغني يدفع من مال الله الذي عنده فيجد البركة والنماء، والفقير يتناول رزق ربه فيسدّ حاجته، والمجتمع ينقى ويطهر من الأمراض الخبيثة.

ولهذا فإن حب الخير للناس مما يقوم عليه ويتقوى به إيمان المؤمن، ألا ترى إلى قوله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، ويقول النبي ﷺ: "إن رجلاً لم يعمل خيراً قط، وكان يداين الناس، فكان إذا أرسل غلامه للتقاضي يقول له: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا، فلما هلك سأله الله تعالى: هل عملت خيراً قط؟! قال: لا إلا أنني كنت أداين الناس فكنت أقول لغلامي: خذ ما تيسر واترك ما عسر، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا، فقال الله له: قد تجاوزت عنك".

فهذه العلاقة بين المؤمن والمؤمن يحرص عليها النبي ﷺ لأنها تهب الجماعة المسلمة قوتها وصلابتها؛ فلا تهون ولا تتفتت ولا تعبث بها الفتن، فيقول ﷺ: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"، ويقول ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، فإن كل مؤمن هو لبنة في بناء المجتمع، يدخل الإيمان بينه وبين غيره كالمونة اللاصقة الجاذبة الموضوعة بين لبنات البناء، فيشتد البناء ويقوى وترتفع هامته، ثم إن من فيض الإيمان تنبعث الرحمة الهادية، التي ترجو ما عند الله، وإنه لحق، حيث يقول النبي ﷺ: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة". ذلك هو الحب الذي جاء به محمد ﷺ لبناء المجتمع عليه.

النبيّ الإنسان المحبّ:

وإذا التفتنا إلى حياته الخاصة ﷺ في بيته ومع أولاده وأهل خاصته وجدناه المثل الأعلى في الحب والود والشفقة. فكان ﷺ يحب الأطفال، ويقبّل أولاده، ويعطف عليهم، ويأمر بالمساواة في المحبة بينهم، كما كان يحب أهله وزوجاته، وهو القائل: "حبب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة".

لقد كان ﷺ يحترم ويود ويحب زوجاته، ويقدر مشاعرهن بطريقة لا يرقى إليها أي من المحبين الذين ادّعوا أو أحبّوا أهليهم وأولادهم. لقد كان قدوة، بل خير قدوة ﷺ، فقد كان يعيش بين أزواجه رجلاً ذا قلب وعاطفة ووجدان، حياته مليئة بالحب، والحنان، والمودة، والرحمة.

ومما يذكر أنه كان مع عائشة رضي الله عنها التي يحبها كثيراً، يراها تشرب من الكأس فيحرص كل الحرص على أن يشرب من الجهة التي شربت منها، وهي صورة يندر أن يقوم به مدّعو الحب بيننا، إنه حب النبي محمد ﷺ للصدِّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما.

ومِن تودّده لها وزيادة في حبها أنه كان يسابقها في وقت الحرب، يطلب من الجيش التقدم لينفرد بأم المؤمنين عائشة ليسابقها ويعيش معها ذلك الحب الزوجي الراقي.

وفي المرض، حين تقترب ساعة اللقاء بربه وروحه تطلع إلى لقاء الرفيق الأعلى، لا يجد نفسه إلا طالباً من زوجاته أن يمكث ساعة احتضاره ﷺ إلا في بيت عائشة، ليموت ورأسه على صدرها، ذاك حبّ أسمى وأعظم من أن تصفه الكلمات أو تجيش به المشاعر.

إنه رسول الله ﷺ يرسم لنا طريقاً للحب فريداً من نوعه أوسع مما حصرته فيها مفاهيمنا المادية العلمانية التي تضيّق علينا واسعاً وتحرمنا من مشاعرنا.

ولذلك فهو في حبه هذا لعائشة رضي الله عنها لا يجعله هذا الحب ينسى أو يتناسى حبه العظيم الخالد لخديجة الكبرى التي كانت أحب أزواجه إليه، والتي

قدمت له في ساعة العسرة ما لم يقدمه أحد آخر.

وفي لحظة شعور امرأة تسأله السيدة عائشة ﵂ وتقول: ما لك تذكر عجوزاً أبدلك الله خيراً منها (تعني نفسها)؟! فيقول لها: لا والله، ما أبدلني زوجاً خيراً منها، ويغضب لذلك، ويبين لها أن حب خديجة لم يفارق قلبه أبداً، ذلك هو الحب الوفي الذي يريد أن يعلمنا إياه رسول الله ﷺ إنه يعلمنا أنه يحب عائشة، ولكن يحب أيضاً خديجة ﵂ كما يحب زوجاته الأخريات ﵃.

ومما تذكره كتب السيرة أنه ﷺ حج بنسائه، فلما كان في بعض الطريق نزل رجل فساق بهن فأسرع، فقال النبي كذلك، سوقك بالقوارير -يعني النساء- فبينما هم يسيرون برك لصفية بنت حيي جملها، وكانت من أحسنهن ظهراً، فبكت وجاء رسول الله ﷺ حين أخبر بذلك، فجعل يمسح دموعها بيده، وجعلت تزداد بكاء وهو ينهاها.

إنه لموقف جميل من الحبيب محمد ﷺ مع زوجته حين مسح دمعتها بيده، ثم أمر الناس بالوقوف والنزول، علماً بأنه لم يكن يريد أن ينزل. لم يحقر النبي ﷺ مشاعر صفية وعواطفها، بل احترمها وأنزل القافلة كلها من أجلها. فكم منا من رجل مسح دموع زوجته وطيب خاطرها!

إنه محمد النبي الحبيب ﷺ مسح الدمعة بيده، ومرّر يده الكريمة على خد زوجته في قمة من مشاعر الحب والاحترام والعناية والتقدير لعواطف المرأة ومشاعرها. والذين يتفاخرون اليوم من الغربيين ومن العلمانيين باحترام المرأة لم يبلغوا ولن يبلغوا ما قام به محمد ﷺ.

إبراهيم بن محمد:

لقد ابتلي النبي ﷺ بما لم يبتل به أحد، ولكنه كان المثل الأعلى في الاحتساب والصبر، وحين مات ابنه إبراهيم عليه السلام، اهتزت مشاعر الأبوة والحب،

فيبكي ويحزن "إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع، وإنا يا إبراهيم على فراقك لمحزنون". يعلمنا عليه الصلاة والسلام كيف يكون الحب، وكيف يكون الحزن على فراق الحبيب، ولكن كل ذلك في حدود ما يرضي الله تعالى. إنهما حب وحزن نابعان من أب نبي بشر تتجلى فيه أعلى معاني الحب والرحمة والشفقة على فراق الأحبة، ولكنه حب لا ينسيه أنه مبلّغ عن الله، وأنّ أمانة الرسالة أعظم الأمانات. ولذلك حينما كسفت الشمس وظن بعض الناس أنها لموت إبراهيم، قال ﷺ: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تنكسفان لموت أحد أو حياته".

ويمتد حبه لأمته ﷺ التي كان يبكي من أجلها في هدأة الليل، فقد كان يقف في سكون الليل وظلمته الحالكة ليصلي صلاة التائب على الرغم من أنه غُفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه، وكان في ذلك الليل يتذكر أمته ويسكب عليها الدموع، ويسأل الله: "أمتي، أمتي".

حاجة البشرية والحضارة للحبّ:

إن البشرية اليوم والحضارة الإنسانية التي يهيمن عليها النموذج الحضاري الغربي، وتهيمن عليها الأذواق الغربية والمفاهيم الغربية في كل شيء حتى في مفهوم الحب- قد فقدت الحياة فيها كرامتها وقداستها حينما حولت كل المعاني والقيم والعلاقات إلى أشكال وماديات ومظاهر.

ولفقدان الحب صار يُحتفل به مثل ما يُحتفل بأي شيء آخر، وخصصوا له يوماً، وكأن بقية الأيام ليست للحب، وفيه يتذكر العشاق بعضهم بعضاً من خلال تبادل الهدايا والبطاقات، أو أي شيء مادي، وصارت تنفق أموال طائلة في مناسبة عيد الحب، بل إن من الناس من يفلس بهذه المناسبة.

وارتبط الحب في المفاهيم الغربية المهيمنة بالجنس والعري وتبادل الغراميات المحرمة، أو تلك التعبيرات المزيفة الجافة الفارغة من أي معنى.

ولكن الحب الحقيقي الذي جاء محمد ﷺ لتعليمنا إياه، هو ذلك الحب المرتبط بالله تعالى وبنهجه في الحياة، وبما ارتضاه من علاقات ومعانٍ وقيم وتعبيرات عن المشاعر.

ونختم بهاتين الآيتين المعبرتين عن عمق الحب وأهمية ارتباطه بالله تعالى. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١] ويقول عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

نبي السلام:

إذا كان خلقا الرحمة والمحبة عند رسول الله ﷺ قد كملا وتكاملا فيما بينهما، وبلغا درجة الكمال في شخصه ﷺ، واتصفت بهما تصرفاته وأقواله كلها، وشملت كل جوانب الحياة، ومختلف مستويات الخطاب والممارسة، وشتى أصناف الناس.

فإن السلم والسلام في شخصه ﷺ وفي سيرته ودعوته والدين الذي جاء به علامة بارزة، بل أن المتأمل في شخصية ودعوة وسيرة النبي محمد ﷺ ليدرك أن السلم والسلام - بلغة العصر - كان مشروعاً استراتيجيا للنبي ﷺ شاملاً للأشخاص والأزمان والأمكنة، ولم يكن إجراءات مرحلية، أو تخطيطاً وقتياً لتفادي مشكلات معينة، بل لكي يدخل الناس ﴿فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] ويعمّ السلام بأن (يكون الدين لله) الذي هو دين الإسلام والسلم، ذلك أن (الدين عند الله الإسلام)، ورب العباد يدعو إلى السلام، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

السلم مبدأ ومسلك وغاية:

إنّ الإسلام دين السلم وشعاره السلام، فبعد أن كان عرب الجاهلية يشعلون الحروب لعقود من الزمن من أجل ناقة أو نيل ثأر ويهدرون في ذلك الدماء، جاء الإسلام وأخذ يدعوهم إلى السلم والوئام، ونبذ الحروب والشحناء التي

لا تولّد سوى الدمار والفساد.

ولذلك فإن القرآن جعل غايته أن يدخل الناس في السلم جميعاً، فنادى المؤمنين بأن يتخذوه غاية عامة، قال الله -عز وجل- مخاطباً أهل الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، بل إن من صفات المؤمنين أنهم يردون على جهالات الآخرين بالسلم، فيكون السلم هنا مسلكاً لردّ عدوان الجاهلين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: من الآية ٦٣] ذلك أن مسلك السلم لا يستوي ومسلك العنف، ومسلك العفو لا يستوي ومسلك الانتقام، ومسلك اللين لا يستوي ومسلك الشدة والغلظة، ولذا كان رسول الله ﷺ يدعو ويوصي دائماً أصحابه بالدفع بالتي هي أحسن، والإحسان إلى المسيئين، مصداقاً لما قال تعالى موصياً سيد الخلق أجمعين ﷺ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: ٣٤] كما أنهم دعوا إلى الجنوح للسلم فقال تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] وشجع القرآن المسلمين على التزام السلم - وهذا وقت الحرب- وطالبهم بتلمّس السلم إن وجدوا رداً إيجابياً من الطرف الآخر، فقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾[النساء: من الآية ٩٠].

لا إكراه في الدين: سلم دون تلفيق

الإسلام رسالته واضحة بيّنة، والنبي ﷺ كان واضحاً بيّناً وسيبقى دينه واضحاً بيّناً للعالمين، بأن هناك فرقاً بين احترام حرية الآخرين في اختيار ما يعتقدون، وبين التلفيق بين الأديان، أو قبول أديان الضلالة.

فالإسلام متناسق وواضح ومنسجم مع منطقه الداخلي ومع الحقيقة الموضوعية، ولذلك فإنه لا يقبل التلفيق بين الأديان، فالإسلام هو الحقيقة

المطلقة، ولا يقبل بحال من الأحوال قبول العقائد الأخرى في منطق الإسلام، كما أن التأكيد على التمايز بين الحق والضلال واضح في منهجه ﷺ وذلك في سورة (الكافرون) حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[الكافرون: من الآية ١: ٦]. ولكن في الوقت نفسه لا يصح بحال من الأحوال إجبار وإكراه الآخرين على قبوله، ولذلك بيّن القرآن الكريم أن ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[البقرة: من الآية ٢٥٦] لأنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[البقرة: من الآية ٢٥٦].

بل إن القرآن نفسه به آيات كثيرة تدعو إلى احترام عقائد الآخرين حتّى ولو كانت فاسدة وغير صحيحة، وذلك لسماحة الإسلام حتى في مقابل أصحاب العقائد الضالّة التي لا قداسة لها في نظر الإسلام. فأمرنا الله تعالى بعدم إيذاء الكافرين وإثارتهم وإهانة دينهم أو أديانهم عبر سبّ آلهتهم فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: من الآية ١٠٨]، بل دعانا إلى اتخاذ مسلك آخر أكثر إيجابية ومبدئية، وهو منهج الإحسان والدعوة بالحسنى بدل السبّ والشتم والشحناء؛ لأنه مناقض لمنهج الإسلام وغايته في تحقيق السلم، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥﴾[النحل: الآية ١٢٥].

صفح من أجل السلم

من أجل تحقيق رسالته في السلم فإن النبي ﷺ يعلمنا مسلكاً مهماً آخر لتحقيق السلم، وذلك من خلال حثّنا على الصّفح وغضّ النظر عن إساءة الآخرين. ووضع القرآن الكريم لذلك آيات بينات تُعدّ دستورا خالداً يختلف عن تلك المقولات الجوفاء التي تترنم بها بعض الأديان، يقول

تعالى:﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾. [التغابن: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. [النور: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال سبحانه: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾[الزخرف:٨٩] ، وقال تعالى:﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٠٩]. هذا بالإضافة إلى الآيات التي تدل على الغفران والغضّ عن السيئة والمحبة والإحسان وما أشبه.

ولقد كان النبي ﷺ نموذجاً وقدوة في الصفح والعفو من أجل السلم مبدأ وغاية، لقد كانت المرحلة المكية من الدعوة النبوية فترة عصيبة أُوذي فيها النبي ﷺ في شخصه الكريم، وفي أهل بيته وفي صحابته، ولكنه لم يكن يرد الإيذاء، بل كان يردّ رداً جميلاً، فحين كان أبو لهب يرميه بالحجارة، وأم جميل تلقي في طريقه الأشواك، وبعض الكفار يلقي سَلَى الشاة على رأسه وهو قائم يصلي عند الكعبة، وبعضهم يبصق في وجهه الطاهر الشريف، وأبو جهل يشج رأسه وغيرها، كان ﷺ يقول:"اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"، ثم إنه لما انتصر على قوى الكفر والطاغوت ورجع إلى مكة فاتحاً كان أرحم بأهلها من الأم بولدها، وحقق السلم المطلق فلم تُرق قطرة دم في فتح مكة، ولما قال بعض أصحابه:"اليوم يوم الملحمة" قال:"بل اليوم يوم المرحمة"، وخاطب أهل مكة قائلاً:"ما تظنون أني فاعل بكم"، وقد أقدره الله عليهم، قالوا:"أخ كريم وابن أخ كريم"، فقال:"اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وكان يوماً سجله التاريخ في تحقيق الفتح بالسلم، فهل هناك سلم مثل سلم محمد ﷺ.

الحج: دورة مكثفة لتعلم السلم

هناك صلة رائعة بين خليل الله إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء، وبين الحج وبين الإسلام وبين السلام. فالإسلام دين الحنيفية السمحة، وهو ملة أبينا إبراهيم،

وهو الذي سمّانا المسلمين من قبل، وهو الذي أذن في الناس بالحج، فكان محمد ﷺ النبي الخاتم الذي اكتملت على يديه الرسالة واختتمت النبوة وتمت به النعمة.

والعجيب في الأمر أن شعيرة الحج مرتبطة أيضا بتقديم الأضحية التي هي حيوان يقدم قربانا لله تعالى، وهي سنة سنها أبونا إبراهيم الخليل فدية عن ابنه إسماعيل الذبيح عليهما السلام.

وكأن الله تعالى يعلمنا أن الحنيفية السمحة جاءت لتحقيق السلم من خلال تخليص بني البشر من سفك الدماء وقتل النفس وافتدائها بالذبح العظيم الذي أمر الله تعالى به.

ولقد رسّخ الإسلام شعائر الحج ورتبها بطريقة تجعل الحاج في سلم شامل، ليس مع الناس فقط، بل مع كل شيء؛ الشجر والحجر والحيوان ومع الكون كله، تسليماً لرب العالمين.

إن الحج تجربة تمثّل ورشة مكثفة للتدريب على الشحن الروحي والتعبئة على السلم والتدريب على محاربة نوازع النفس السيئة. وإن الأضحية التي يقدمها الحاج والطواف بالبيت العتيق تمثل شعيرة خالدة تعبر عن ذلك الإعلان الإبراهيمي العالمي بالتوقف عن تقديم القرابين البشرية، وتوديع عقلية العالم القديم، في حل المشاكل بالعنف، لذا كان الحج في ترميزه المكثف، تدريباً سنوياً لشحن الإنسان بالروح السلامية، فالمظهر متشح بالبياض، والكعبة أصبحت بيت الله الحرام، فيحرم ممارسة العنف بكل أشكاله وامتداداته، فلا جدال في الحج، الجدال بمعنى التنازع والتوتر، وينعم الجميع ببحيرة للسلام في أرض غير ذي زرع، ويأمن الطير والدواب والإنسان على أنفسهم من العدوان، بعد أن كان الناس يُتخطّفون من حولهم، ويمتد السلام من النفس إلى البدن فلا يُنتف الشعر أو تُقص الأظافر، وينتهي بتدشين تجربة على ظهر الأرض، سنوية لا تقبل الإلغاء أو التأجيل، للسلام الزماني المكاني، في البيت الحرام من خلال الأشهر الحرم.

إن الحج يعلمنا أن العالم كله ينبغي أن يتحول إلى حرم آمن في كل وقت، ولذلك يأتي هذا التدريب السنوي لملايين من البشر على تحقيق مطلق السلم مع كل المخلوقات في البلد الأمين في الأشهر الحرم.

كما أنه يعلمنا السعي لتحقيق السلام العالمي من خلال هذه التجربة الإنسانية الفريدة، التي يتم فيها التدريب سنوياً على السلام والسلام المطلق مع المكان والزمان والكائنات، وهو بذلك يذكرنا أننا ينبغي أن نوسع من هذه الورشة والدورة المكثفة وننقلها إلى المستوى الإنساني الأوسع، بتبني الأسلوب السلمي في بقية الأماكن وبقية الأوقات ومع مختلف القضايا.

الجهاد مسلك لتحقيق السلم

معنى الجهاد:

الجهاد كلمة شاملة تعني لغوياً الجد والمبالغة وبذل الوسع والمجهود والطاقة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾[التوبة: من الآية ٧٩]. وتعني دينياً تحقيق الإيمان الحقيقي وما يتمخّض عنه، ومقارعة كل ما يبغضه الله من كفر وانحلال وفسوق، ومن ثم قال ابن تيمية:"الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان" (كتاب العبودية، ص١٠٤). وقد وردت كلمة الجهاد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة،، ومما ورد في القرآن الكريم من استخدام لكلمة (جهاد) قوله تعال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨﴾ [التوبة: ٨٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ (التوبة: ٧٢)، وقوله:﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢].

أهميّة الجهاد في منهج نبي الرحمة والمحبة والسلام:

إن الجهاد في معنى القتال هو أحد المسالك التي سنها النبي ﷺ بوحي من الله تعالى من أجل أن يعم السلام وينتشر الخير ويدفع تسلط الطواغيت والظلمة والكافرين، إنقاذاً للمظلومين، وتحقيق لحرية الناس وحقهم في العيش في امن وسلام، وقد أمر الله تعالى نبيه الكريم بجهاد الظالمين من الكفار والمنافقين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ (التوبة: ٧٢)، وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾(التوبة: ١٢)، كما أمرنا أن نعد العدة من أجل ردع الظالمين وإرهابهم حتى لا يروّعوا الآمنين، فقال تعالى: (﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾.[الأنفال: ٦٠].

كما ربط الله تعالى بين القتال وبين ذكر الله تعالى، فقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]، وحرّم الله استدبار العدو الكافر بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾. [الأنفال: ١٥-١٦]، داعياً إلى بذل الغالي والنفيس من أجل تحقيق السلم الذي يأتي من خلال انتشار معاني حب الله والجهاد في سبيله، وإلى تفضيل ذلك على الآباء والأبناء والأموال والعشيرة على الدنيا الفانية والشهوات والهوى، فقال عز من قائل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[التوبة: ٢٤].

وقد وهب الله سبحانه المجاهدين درجات عليا وجزى المستشهدين في سبيله جزاءً أوفى قائلاً بمنح الجنة للمجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، ومبشراً الشهداء بأنهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة:١٥٤] كل هذا ليس رغبة في القتال من أجل القتال، وليس رغبة في سفك الدماء، ولكنه دفع للعدوان حينما تنتفي الدوافع والمسالك السلمية لتحقيق السلم، وأن يكون الدين لله. ولذلك فإن الله تعالى يشدد على المؤمنين بأن يكون جهادهم على وعي تام بمبادئه وغاياته، فلا قتال لمن أراد السلم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[الأنفال: ٦١]، كما أن المنهج النبوي يؤكد عدم العدوان بقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: ٩٠] لأن القتال يكون لمن بدأ بالعدوان ومن أجل إنهاء العدوان فقط، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[البقرة: ١٩٠] وقال سبحانه: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الممتحنة: ٨].

لماذا جاهد رسول الله ﷺ؟

كما سبق القول فإن الإسلام دين محمد ﷺ ومنهجه لم يفرض الجهاد رغبة في السيطرة والتوسع، أو كسباً للمنافع الدنيوية، أو إرغاماً للناس على تركهم عقائدهم السابقة والدخول في الدين الجديد، أو حبّاً في اظهار القوة والتفوق الحربي، وإنما شُرع دفعاً للظلم، ومقاومة للباطل، ونشراً للعدل والحرية والسلام عن طريق كسر الأطواق المضروبة حولها، وتحقيقاً لأهداف الدعوة إلى الله، ودفاعاً عن الأعراض والأوطان والأموال.

والمتتبع لسيرته ﷺ يجد أنه ما قاتل إلا لتحقيق السلم ونشر العدل وبناء الأخوة بين الناس من خلال رد العدوان وكسر طوق الظالمين. فالنبي ﷺ وأصحابه أُخرجوا من ديارهم بغير حق، فأمرهم الله تعالى بقتال من يعتدي عليهم، وبإخراج من يحاول إخراجهم من ديارهم وأراضيهم، ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة:١٩١]، ولكن في إطار العدل والسلم كمسلك وغاية، فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

كما أن الجهاد شُرع لفتح الطريق أمام الفضيلة والخير والعدل والسلم إذا وقف أهل الباطل في طريق السلام العالمي، ومن أجل أن تتحقق الحرية والأمن والسلام للمستضعفين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

وبما أن النبي ﷺ جاء رحمة للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾. [سبأ: ٢٨]، وأرسل دينه رحمةً لجميع مخلوقاته، ومن ثمّ فإنّ الوقوف في وجه الدين، وحرمان البشر من عطائه الروحي والمادي مرفوضٌ في شرع الإسلام، وإنّ المسلمين مطالبون بحرب من يقف في وجه حرية انتشار الحق والخير والعدل ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. [الأنفال: ٣٩].

هذه إذن بعض دوافع شرع الجهاد، وهي واضحة في أنها مسلك لتحقيق السلم وفتح الآفاق أمام الناس حتى لا تكون هناك فتنة او سفك للدماء بغير وجه حق. وذلك بعض مما أمكن بيانه من شمائله ﷺ، فهو بحق رجل المحبة والرحمة والسلام.

***

يا شبابنا.. من قدوتكم؟

يحتاج الناس عادة إلى نماذج بشرية يتخذونها قدوة في حياتهم، ولاسيَّما في مرحلة الشباب حيث تكون القدوة أهم سبيل لتشكيل الشخصية. كما يحتاج الشباب ومن هم في سن المراهقة إلى شخصيات واقعية، إما من واقع الحياة أو من التاريخ، يتخذونها ملهما لهم، ويقلدونها في تصرفاتها وأفكارها، وطريقة حياتها، ذلك أن الإنسان في هذه السن لم يرتق بعد إلى مستوى التجريد النظري الذي يستطيع من خلاله أن يستقل بشخصيته.

فالشاب الذي بدأت قواه الإدراكية في التطور، وأخذت قواه النفسية في النمو، يحتاج إلى نموذج عملي مشخص يتمثله، ويبني عليه شخصيته، ويقلده في تصرفاته، ويتبعه في أفكاره. ولهذا كانت مرحلة الشباب والمراهقة، هي المرحلة الخطيرة في حياة الإنسان، حيث يتشكل فيها وعيه المستقبلي الذي يهيمن على حياته في مرحلة النضج واكتمال النمو.

ضرورة القدوة

وفي هذا السياق فإن مسألة القدوة تثار بشكل ملح، وتأخذ أهمية كبرى لما لها من دور توجيهي لقدرات الشباب وأفكارهم وأحلامهم.

ولقد تفطن لذلك الغربيون، فعملوا على صناعة شخصيات اجتماعية وثقافية وفكرية وفنية وسياسية ورياضية ودينية ذات صيت عالمي، وسمعة واسعة الانتشار، وبريق أخاذ، وحضور مستمر في صناعة الحدث بمختلف أوجهه.

والمراهقون يحتاجون في بداية حياتهم إلى نموذج بشري يتخذونه قدوة لهم. فنرى بعضهم يقتدي بنجوم الرياضة أو الممثلين أو المغنين، يقلدونهم في حركاتهم ولباسهم وتسريحة شعرهم وطريقة كلامهم.

خطر العولمة

وفي مرحلة العولمة وزوال الحدود بكل أشكالها، مما كان يعتبر حدودا تحمي الداخل في وجه أي تسرب للآخر إلى حصوننا، فإن التدفق الإعلامي والمعلوماتي وانتشار الثقافة الغربية بفعل الهيمنة والقوة الحضارية الغربية، جعلنا في موقع المغلوب المتأثر بغالبه، المقلد له.

وبما أننا لا يمكن أن ننعزل عن غيرنا في هذا العالم الذي صار قرية صغيرة تتجاوب بعض جنباتها مع ما يحدث في جنباتها الأخرى، فإننا أمام خطر حقيقي يتهددنا في وجودنا الحضاري، وفي شبابنا الذين هم رصيدنا المستقبلي.

والخطر في أن ينشأ هذا الشباب على نماذج غير التي نريد، ويتخذ قدوات غير ما نصبو إليه من التميز الديني الحضاري. فشبابنا اليوم ينشأ مبهورا بالمشاهير الغربيين أو حتى المشاهير المحليين من أبناء جلدتنا الذين لا يختلفون عن الغربيين إلا في الاسم.

قدوات ممسوخة

فشبابنا اليوم ينشأ متأثرا بنماذج جذابة في ظاهرها من الرياضيين، والممثلين، والفنانين، وبعض الكتاب والمفكرين، والسياسيين، ودعاة حقوق الإنسان وحماية البيئة والحيوان وغيرها.

غير أن المطلع على خبايا حياة هذه النماذج التي انبهر بها شبابنا يجدها أبعد ما تكون عن النموذج الصالح، فمعظمهم غارق في الانحلال الخلقي، والمخدرات، والجنوح نحو الشذوذ، والخروج عن الفطرة.

بينما نحن أحوج ما نكون إلى نماذج قوية في شخصيتها، طاهرة في نفسها، طيبة في سريرتها، سليمة في عقيدتها، متكاملة في شخصيتها، سابقة في أصالتها، مستقيمة مع فطرتها، واقعية في تجربتها، صالحة لأن نقتدي بها.

وبخاصة ونحن نسعى إلى التميز عقديا وحضاريا، والتفاعل مع غيرنا من الأمم بأصالة وفعالية، من أجل أن نسجل حضورنا بين الأمم، وأن نستعيد مكانتنا الحضارية الإسلامية كما كانت عليه من قبل رائدة للحضارة البشرية وهادية لها إلى عبادة الله الواحد الأحد وعمارة الأرض وتحقيق الاستخلاف.

الرسول قدوتنا

ولهذا فالسؤال الموجه إلى كل واحد منا: مربين وطلابا، ولاة أمور ورعية، حكاما ومحكومين، رجالا ونساء، شبابا وشيوخا، أن نسأل أنفسنا: ما النماذج الصالحة للاقتداء؟ ومن يصلح أو من تصلح أن نتخذه أو نتخذها قدوة لنا؟ ومن يمكن له أو لها أن يتبوأ مكانة المثال والنموذج المقتدى في نفوسنا جميعا وفي نفوس شبابنا خصوصا؟

ولا شك أنا بقليل من التأمل في الشخصية التي نتخذها وشبابنا قدوة هي شخصية محمد ﷺ وشخصيات آله وزوجاته وأصحابه.

فقد كان النبي نموذجا في طفولته وشبابه وكهولته. كان نموذجا في الطموح، والعفة، والصبر، والأمانة، والصدق، والجد، والهزل. كان نموذجا في حياته الخاصة والعامة، وفي ثقافته، وتدينه، وسياسته، وعلاقاته الاجتماعية، ونشاطه التجاري. كان نموذجا في أسرته، وأولاده، وفقره، وغناه، وفرحه، وحزنه، وغضبه، ورضاه. كان نموذجا في حياته، ومماته، وعلمه، واجتهاده، وحربه، وسلمه.

ذلك هو النموذج الذي ينبغي أن نتخذه قدوة، ليس لأنه نبينا فقط، ونؤمن به ونصدقه ونتبع، ولكن لأنه كان فعلا نموذجا ناجحا بكل المقاييس، وبكل

المعايير، ومن مختلف الأوجه، وعلى مختلف المستويات. فلا ينكر نموذجيته أحد، مسلما كان أو غير مسلم.

بل إن محمدا ﷺ كان نموذجا عمليا وواقعيا بلغت نموذجيته أن شكل نماذج أخرى تشع قدوة ومثالية، نساء ورجالا وأطفالا، بنى بهم أمة وحضارة لم تُسبق في التاريخ.

ذلك هو فعلا النموذج الجدير بالاقتداء والتمثل والاتباع من قبل شبابنا، شباب أمة تطمح إلى استعادة دورها في الشهادة والريادة، ولتكون مرة أخرى "خير أمة أخرجت للناس".

***

الوسطية رؤية ومنهج وليست تلفيقاً

في ظل ما تواجهه أمتنا من تحديات، يسعى أبناؤها إلى حلول لهذا الوضع، فيتجه البعض إلى الاندماج في الواقع المهيمن، ويسعى البعض الآخر إلى الانسحاب أو اللجوء إلى الماضي، بينما يسعى البعض إلى الدعوة بالتزام الوسطية.

تحت ضغط الواقع قد يفهم البعض أن الوسطية نوع من التلفيق أو الجمع بين المتناقضات أو التوافق الاعتباطي، ولهذا ارتأيت أن أسجل بعض الملحوظات في هذا الموضوع.

رؤية وقانون كلي

الوسطية رؤية تتضمن قانونا عاما للفعل يضبط أصالته وفعاليته، ويحقق خيرته، يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: من الآية ١٤٣]. فباعتبارها رؤية -كما يقول الأستاذ الطيب برغوث- فإنها قانون كلي مطرد للأصالة والفعالية والتجدد الحضاري، ومن ثمة شرط قاعدي جذري للخيرية والمرجعية والقوامة والشهادة.

ولذلك فهي أيضا خلاصة لتفاعل تكاملي للوعي بسنن الله تعالى في الآفاق والأنفس والهداية والتاريخ، أو كما يقول الأستاذ الطيب برغوث خلاصة تفاعل تكاملي متوازن للوعي والفعل بشكل مطرد.

سنن ومنهج

وكما يقول الأستاذ الطيب برغوث مرة أخرى، فإن الفعل الذي نفعله في

مختلف أبعاده لا يكون فعلا وسطيا إلا إذا كان فعلا تكامليا، ولن يكون فعلا تكامليا إلا إذا كان فعلا سننيا، ولن يكون فعلا سننيا إلا إذا كان فعلا منهجيا منتظما.

أي أن فعلنا الفكري أو العملي لا يكون سننيا إلا إذا كان خاضعا للمنهج ولسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتاريخ، وملتزما قواعد اكتشاف القوانين، ومستثمرا لها في الواقع، وموظفا لها في حماية مضمون الوسطية ومنجزاتها وآفاقها.

الوسطية تنتج الخيرية

والأمة التي هي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: من الآية ١١٠] لا يمكن أن تحقق خيريتها وهي فاقدة لوسطيتها، لأن وصف الخيرية ثمرة لفعل تاريخي ينجزه أبناء الأمة بناء على التزامهم بتلك الرؤية الوسطية القائمة على التزام السنن الربانية في شتى مجالات الحياة، ولهذا فإن تحققنا بوصف الخيرة لن يتحقق "بمعزل عن التحقق العملي بالمضامين السننية المتكاملة لمفهوم الوسطية المركزي في الإسلام، الذي يقوم على كون الفعل أو الموقف الوسطي في المفهوم الإسلامي الصحيح يشكل باستمرار قمة التكامل التوازني الخصب بين نسب عناصر ومفردات المادة التسخيرية الأولية المستثمرة في تأسيس وبناء الفعل المعرفي والسلوكي والاجتماعي المؤثر في حركة الأمة والحضارة" كما يقول الأستاذ الطيب برغوث.

ولهذا، فإن أي فهم للخيرية باعتباره وصفا وجوديا وليس تاريخيا، فإنه سيخرج الخيرية عن سياقها الشرعي والحضاري، أي أننا ما لم نفهم أن التحقق بوصف الخيرية هو التزام بالوسطية رؤية ومنهجا كما بيناه أعلاه، فإن ذلك سيؤدي إلى الخروج عن الوسطية ذاتها، ويوصلنا إلى فهم لا منهجي، وأداء غير منضبط بضوابط الأصالة والفعالية التي حدد القرآن موازينها.

ملتقى روافد الرشد الإنساني

والخيرية تكمن في الوسطية، وتتحقق بها دون سواها، لأن الوسطية كما يقول الأستاذ الطيب برغوث هي "ملتقى روافد الرشد في الخبرة البشرية المتناثرة هنا وهناك، في منظومات سنن الله في الآفاق، وسننه في الأنفس، وسننه في الهداية، وسننه في التأييد، التي يفتقر إليها باستمرار كل فعل بشري مهما كان، لكي يستكمل أصالة وفعالية" واستمراريته.

وإذا فهمنا هذا البعد المهم للوسطية، فإننا نكون منفتحين على الاستفادة من كل التراث الإنساني والخبرات البشرية، إذا وافقت سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتاريخ. ولا ينبغي أن يحصل لنا موقف متشنج، أو عقدة نقص تجاه أي تجربة بشرية طالما أن هناك رؤية وهناك منهج يخضع تلك التجارب لقواعد المنهج وسننه، وبهذا كما يقول الأستاذ الطيب: "تكون الوسطية قد أهلت جهود الأمة الفكرية والعملية لتستفيد من كل ذي خبرة سننية راشدة فعالة في تاريخ الأمة، بل وفي تاريخ الإنسانية الذي هو في النهاية ميراث بشري عام تستنير به الإنسانية كلها في مواجهة تحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد في الأرض".

إبداع وتكامل

وبناء على ما سبق، فإن الوسطية بما هي تجمع لروافد الرشد في الخبرة البشرية، فإنها تؤهلنا كما يقول الأستاذ الطيب برغوث: "لنبني وعينا وخبرتنا وحركة أدائنا الاجتماعي والفكري والثقافي وغيرها، على كل ما هو ذي طابع سنني كلي مطرد، بغض النظر عن مصدره، فالعبرة بالحق والصواب والخيرية في الأساس".

وهذا يجعل من الوسطية منهج "تأليف وتكامل في الوعي والتجربة والأداء بين الخبرات السننية المختلفة، فنأخذ من كل أحد ما نكمل به وعينا، ونجدد

بـه خبرتنـا، ونفعـل بـه أداءنـا، ونؤصلـه ونحميـه، ونحافـظ عـلى اسـتمراريته".

وذلـك بـروح مسـتقلة منفتحـة عـلى كل منهـج سـنني، ومسـتفيدة مـن كل خـبرة بشريـة، ناشـدة الحكمـة حيـث كانـت كـما جـاء في الحديـث النبـوي الـذي أخرجـه الترمـذي، والـذي جـاء فيـه أن رسـول الله ﷺ قـال: "لا تكونـوا إمعـة، تقولـون إن أحسـن النـاس أحسـنّا، وإن ظلمـوا ظلمنـا، ولكـن وطنـوا أنفسـكم إن أحسـن النـاس أن تحسـنوا، وإن أسـاؤوا فـلا تظلمـوا".

***

في جوهر المرجعية الإسلامية

المرجعيـة أو الرؤيـة الكونيـة هـي مصـدر التصـورات، والقيـم، والأفـكار، ومناهـج التفكـير، والغايـات والأهـداف العليـا. فهـي إطـار نظـري يحكـم الـرؤى والمواقـف، والتصرفـات والتطلعـات. ولـكل حضـارة، ولـكل أمـة، ولـكل مجتمـع، مرجعيتـه التـي ينطلـق منهـا في تصـوره للوجـود ولفعلـه التاريخـي.

والمرجعيـة الإسـلامية نفهمهـا بمعنـى أننـا مسـلمون، ننظـر للوجـود، والعـالم، والتاريـخ وللواقـع، مـن منظـور الإسـلام، أي أن أكـون أنـا وأنـت ونحـن، وكل المجتمعـات والشـعوب التـي آمنـت بالإسـلام دينـا منطلقـا لفعلهـا التاريخي. كـما أن المرجعيـة الإسـلامية هـي أن يكـون الإسـلام بالنسـبة لنـا معتقـدا وشرعـة، ومنهاجـا، ورؤيـة كونيـة، ومنهـج حيـاة، ومنبـع الثقافـة، وإطـارا حضاريـا. وهـذه المرجعيـة الإسـلامية في جوهرهـا توحيديـة تكامليـة، سـننية تراحميـة.

فالتوحيديـة تجعـل مـن التوحيـد الـذي هـو جوهـر الإسـلام رؤيـة متماسـكة "إلى الواقـع والحقيقـة والعـالم والزمـان والمـكان والتاريـخ البـشري" كـما يقـول الفاروقـي، وهـذه الرؤيـة المتماسـكة تـزود المسـلم بمبـادئ العقلانيـة والتسـامح، وتؤسـس للوحـدة في النظـر إلى الحقيقـة. كـما أنهـا رؤيـة لهـا امتدادهـا الميتافيزيقـي، والأخلاقـي، والقيمـي، والاجتـماع والجـمالي.

أمـا التكامليـة فهـي بمعنـى أنهـا مرجعيـة تسـتند إلى الوحـي مؤسسـا ومؤطـرا، ومسـتفيدة مـن الخـبرة الحضاريـة للأمـة الاسـلامية عمومـا، ومجتمعاتنـا خصوصـا، وكذلـك الخـبرة الإنسـانية، وهـذا مـا نقصـده بالتكامليـة، حيـث أن هـذه المرجعيـة تسـتوعب الوحـي والعقـل والتاريـخ، وتكامـل بـين منجـزات المـاضي والحـاضر،

متحررة من عقدة الإقصاء أو التفاضل أو التعصب.

كما أن التكاملية "تأليف وتكامل في الوعي والتجربة والأداء.. بين الخبرات السننية المختلفة، فنأخذ من كل أحد ما نكمل به وعينا، ونجدد به خبرتنا، ونفعل به أداءنا، ونؤصله ونحميه، ونحافظ على استمراريته" كما يقول الأستاذ الطيب برغوث، وذلك بروح مستقلة منفتحة على كل منتج سنني، ومستفيدة من كل خبرة بشرية، ناشدة الحكمة حيث كانت، كما جاء في الحديث النبوي الذي أخرجه الترمذي، والذي جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا".

وما نعنيه بالسننية، أن هذه المرجعية تحتكم إلى سنن الله في الهداية، وفي الآفاق، والأنفس والتاريخ، وهذا كله مدخله العلم الذي جاءت (اقرأ) لتؤسس له.

وكما يقول الأستاذ الطيب برغوث مرة أخرى، فإن الفعل الذي نفعله في مختلف أبعاده لا يكون فعلا وسطيا إسلاميا، إلا إذا كان فعلا تكامليا، ولن يكون فعلا تكامليا إلا إذا كان فعلا سننيا، ولن يكون فعلا سننيا إلا إذا كان فعلا منهجيا منتظما. أي أن فعلنا الفكري أو العملي لا يكون سننيا إلا إذا كان خاضعا للمنهج ولسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتاريخ، وملتزما قواعد اكتشاف القوانين، ومستثمرا لها في الواقع، وموظفا لها في حماية مضمون الوسطية ومنجزاتها وآفاقها.

والتراحمية نعني بها أنها مرجعية تنظر إلى الإنسان على أنه حامل رسالة التحضر لكل الناس، ورسالة عمارة الكون لكل البشر، ورسالة خير للعالمين، فلا تقصي من الانتماء إليها أحدا، ولا تحرم من خيرها وبركتها وسعتها أي أحد، ولو لم يؤمن بها. وهذا يجعل الإنسان المسلم ينطلق نحو عمارة الأرض وهو يحمل القدرة على تمييز الخير من الشر، وغربلة التجارب الإنسانية

المحلية والعالمية، الماضية والحاضرة والمستقبلة، دون عقدة، بل موزونة بمعايير الشرع الهادي لخير الإنسان في الدنيا والآخرة.

وهذا ما نفتقده في كثير من أدبياتنا الفكرية والثقافية، بفعل هيمنة ثقافة التخلف أزمنة مديدة، وبفعل عقدة النقص - أو ما يسميه مالك بن نبي القابلية للاستعمار- حيث لم نعد نقف من التجارب موقف الناقد، بل موقف الزبون المهووس بكل جديد، لا يستطيع أن يمتلك القدرة على فرز الغث من السمين، فصرنا نعيش نوعا من الاغتراب، إما في ماضينا، وإما في حاضر غيرنا.

***

القيم بين العالمية الإنسانية والخصوصية الثقافية

الحديث عن القيم في عالم اليوم حديث عن موضوع مهم يمس جوهر الإنسان كما يمس الصراع العالمي حول القيم. ويطرح السؤال بشكل واضح عن مدى عالمية القيم من خصوصياتها، ويستدعي للنقاش مدى تطابق دعوى عالمية القيم، مما يشاع اليوم على أنه قيم وعلى أنه عالمي، ومحاولة حمل الناس كافة عليه بأدوات غير نابعة من هذه القيم، وإنما هي أدوات خارجية طارئة!

ولعلنا نتساءل عن المقصود بهذا الكلام عن القيم بين عالميتها الإنسانية وبين خصوصيتها الثقافية؟ ا هو العالمي فيها؟ وما هو الخاص المحلي المرتبط بسياقات اجتماعية وثقافية حصرية غير قابلة للتعميم؟

مستويان للعالمية

في الحقيقة هناك مستويان للعالمية؛ أحدهما العالمية من حيث تعلقها بالمستوى القيمي الإنساني العام، وأما المستوى الآخر فهو العالمية من حيث تعلقها بهيمنة النموذج الغربي خلال القرنين الأخيرين -والقرن العشرين بالأخص- وذلك من خلال انتشار أنماط الحياة الغربية، والصناعات، وأساليب الاتصال والإنتاج الغربية في العالم.

فأما العالمية القيمية فهي قيم مبدئية تتمثل في تلك القيم المفتوحة والمستوعبة للتطلعات الإنسانية، والمتجاوزة للأطر العرقية والأيديولوجية واللغوية، وكل المحليات أو النماذج الجزئية. وهذه نجدها تتحقق في القيم التي جاء بها الأنبياء، وأكدت عليها كتبهم وتعاليمهم، وذكرها القرآن الكريم،

وأعلنت عنها الرسالة الخاتمة مع بعثة النبي ﷺ. حيث إن القيم القرآنية قيم موضوعية ومفتوحة غير حصرية، وبعيدة عن الإصر والأغلال التي تكبل إنسانية الإنسان، وقادرة على استيعاب كل تطلعات الإنسان، والاستجابة لكل آفاقه والإحاطة بها، دون اختصاص بعرق معين أو لغة معينة أو جهة معينة.

وأما القيم المعولمة فهي قيم إجرائية استعمالية تقوم بها الحضارة الغربية من خلال التشريع للقيم والنماذج والمنتجات الغربية لجعلها محط أنظار العالم، وكذا من خلال التنكر لتاريخ الشعوب والحضارات الأخرى، والضغط الغربي على هذه الحضارات لتتبنى نتائج الرؤية الغربية المتمركزة حول ذاتها، ذات المرتكز والأصالة المادية، لتجعل منه النمط الأوحد الغالب والسائد في العالم، وهي عملية قصدية كان أهم أدواتها الاستعمار والعنصرية والرؤية الحداثية ومشروع الحداثة والفلسفات الحداثية، والرؤية المتحيزة ضد غير الغربي؛ أي مشروع العولمة.

ولا شك أن هناك فرق كبير بين المستويين من حيث الإنسانية ومن حيث القبول بها بين الناس على اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم ومواقعهم؛ فإذا كانت الأولى متعلقة بالإنسان باعتباره إنسانا، فإن الثانية لها حمولتها الثقافية المحصورة في تجربة مجتمع وشعب معين، ولا تحمل في جوهرها القدرة على أن يتبناها الآخرون مبدئيا، بل تتوسل في انتشارها وهيمنتها على أدوات القوة والهيمنة والفرض بأدوات غير عادلة وغير منفتحة.

نماذج للترويج للمحلي على أنه عالمي:

ولعلنا لو تأملنا مشاهدنا اليومية في مختلف المستويات والأنشطة سنلحظ سعيا حثيثا من مؤسسات الاعلام الكبرى والدول المهيمنة والشركات العابرة للقارات لحمل العالم على تبني ما هو محلي من أنماط الحياة وتصويره على أنه عالمي، مع عدم قبول مناقشة ذلك.

فمثلا أثناء حضور ابنتي لدورة من دورات التعريف بحقوق المرأة التي تنظمها "الأمم المتحدة" ومكاتبها الإقليمية، ضرب منظم الدورة التدريبية مثالاً عن "ظلم المرأة" بحسبه بمسألة ما أسماه هو زواج البنات القاصرات في بعض البيئات العربية والاسلامية، واعتبر ذلك امر يهدد حياة المرأة وحريتها واستمتاعها بشبابها ويمنعها من التعليم ويحملها المسؤولية قبل الوقت، في حين أنه نسي أو تغافل أن يضرب مثلا بأنواع أخرى لظلم المرأة، كما الحال في وقوف صبايا شبه عاريات أمام سيارات السباق، أو مرافقات للملاكمين، أو عارضات مفاتن في البارات، أو موفرات متعة في الفنادق، أو أمثلة أخرى عن إجبار البنات الصغيرات بطرق الإغراء المختلفة والاقناع المزيف على اتخاذ أخدان (boyfriend) حيث تظهر الممتنعة عن ذلك كأنها شاذة عن الفطرة.

هذا ما تقوم به كثير من منظمات الأمم المتحدة المتعلقة بالمرأة والفتاة والأسرة وغيرها، مع العلم أن الأمم المتحدة قامت أساسا على استبعاد وجودي للدين، بحيث لا يقبل إلا باعتباره تعبيرا عن شأن شخصي. كما أن هناك أمثلك كثيرة للترويج لأنماط اللباس، وللذوق العام، وللعادات الغربية عموما والأمريكية بوجه خاص على أنها قيم عالمية وأنماط عيش عالمية، وهذا مخالف لأبسط أبجديات الحقيقة والعالمية.

إما معايير عالمية أو كلٌّ يحتكم إلى ثقافته:

ولهذا علينا أن نعي تماما أن كثيرا مما يروج له على أنه قيم عالمية يفتقر إلى معايير العلمية عقلا وشرعا وفطرة، ولهذا فعلينا إما أن نحتكم إلى معايير عالمية متفق عليها أو كلٌّ يحتكم إلى ثقافته، لأن الثقافة فيها من الخصوصية ما يمنعها من ان تكون عالمية، لنها مرتبطة بسياق اجتماعي وزماني وحضاري محدد، وليس فيها من العالمية إلا بمقدار ما تتضمن من عناصر إنسانية يمكن تعميمها موضوعيا وليس بأدوات الهيمنة.

أمـا تعميـم نـماذج ثقافيـة محليـة عـلى أسـاس أنهـا معايـير للحريـة والعـدل والإنسـانية، فـإن ذلـك يحتـاج إلى نقـاش كبـير، لأسـس اعتبارهـا معايـير إنسـانية وعالميـة!

***

الشهادة على الناس في عصر تزاحم القيم

لعل من القضايا الملحّة التي تواجه المسلم بشكل مباشر، قضية كيفية تحقيق ذاته، والحفاظ عليها. هذه الذات التي عمادها الإسلام، استمرار لخط النبوة الذي تواصل عبر سلسلة طويلة من أول الأنبياء عليهم السلام، إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

شهادة الأمة:

ومنذ أن جاء الإسلام، فتح الآفاق أمام المسلم، واختار له دور الشهادة، وحدد له الموقع الوسط، ليحقق أمانة الاستخلاف، ويعبد الله تعالى، ويُعبِّد الناس له عز وجل، ويحررهم من عبادة غير الله؛ من أنواع الآلهة المتعددة كالتقليد والهوى والأشخاص والأشياء، وكل الأوثان بأنواعها، والعقائد باختلافاتها، ليجتمع شمله، وتتوحد وجهته، ويقصد في سيره إلى ملاقاة الله عز وجل.

هذه الرسالة، هي رسالة الوسطية والشهادة، قال تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} [البقرة، ١٤٣]، رسالة محددة من عند الله عز وجل، وليس لنا أن نختار دوراً أشرف من دور الشهادة.

تحديات عصر جديد:

وإذا تأملنا سيرة السلف الصالح، نجد أنهم أدوا دورهم، وحققوا الريادة، وشهدوا على الناس، بفعل حضورهم. غير أن مسلم اليوم يواجه المسألة من

جديد، وفي عصر يختلف عن العصور السابقة، بما شهدته البشرية من تقدم، وتطور، ونضج، وبما شهدته وتشهده من إنجازات حضارية مذهلة في عالم المادة، والفكر، والمعرفة، والقيم، لها آثارها في المجال النفسي، والأخلاقي، كما شهدت تغيرات جذرية، وعواصف كبرى على التاريخ الإنساني.

في هذا العصر الذي "نما فيه واقع المجتمعات المعاصرة وتمدد خارج إطار المرجعية الإسلامية"، وفُرضت على المسلم تحديات، متنوعة، "ولم يعد في وسع القياسات الفقهية الجزئية والتلفيقات الفكرية المرتجلة أن تحقق أمراً ذا بال"، وذلك للفارق النوعي بين مجتمعات الامس ومجتمعات اليوم.

اختلاف نوعي:

فالاختلاف "النوعي بين المجتمعات المعاصرة المعقدة والمجتمعات القديمة البسيطة، يستلزم إصلاحا جذريا نوعيا شاملا" كما يقول الدكتور طارق رمضان.

ولعل هذه التحديات تدفعنا إلى معرفة طبيعتها، ومصادرها، وخصائص العصر الذي أنتجها، لإعطاء مبرر علمي للقيام بتحديد الدور الذي علينا القيام به وتحقيق الشهادة التي أناطتها الآية الكريمة بأمتنا.

كما تتطلب منا صياغات علمية وعملية، لرفع التحدي وتجاوز مرحلة الغثائية والوهن التي نحن فيها، وتقينا من هدر الإمكان، وتكرار الفشل، والارتكاس المتكرر. وصياغة مشروع حضاري يسهم في البناء الحضاري للأمة، وحل أزمتها؛ التي هي في عمقها أزمة حضارية شاملة، تقتضي عدم التجزيء؛ إن في الطرح أو التحليل أو العلاج.

كما تقتضي المرحلة التي نعيشها الارتقاء إلى مستوى الأحداث الإنسانية كما يقول مالك بن نبي، للمساهمة في صنعها، وتوجيهها، وتقديم الحلول لها.

وهـذا في الحقيقـة يتطلـب منـا التفكـير في طبيعـة المجتمعـات اليـوم، في بنيتهـا، في العلاقـات فيهـا، في أسسـها، وفي العلاقـات بـين المجتمعـات المختلفـة، مـا ذا بقـي فيهـا ثابتـا، ومـاذا تغـير فيهـا ولم يعـد ينفـع معـه الفهـم القديـم، وعـن القيـم الحاكـم في زمننـا هـذا في مختلـف المجتمعـات، وهـل تتوافـق أم تتصـادم أم تتزاحـم.

الحاجة إلى حوار معرفي وأخلاقي:

وقـد تـم تنظيـم مؤتمـر علمـي مـن قبـل مركـز التشريـع الإسـلامي والأخـلاق في كليـة قطـر للدراسـات الاسـلامية في بدايـة هـذا الشـهر تحـت عنوان"تزاحـم القيـم في العـالم المعـاصر: إسـهامات إسـلامية"، وذلـك لمعالجـة مثـل هـذا الموضـوع، الـذي يسـائل دورنـا كأمـة شـهادة ووسـطية وخيريـة عـن دورنـا في عـالم اليـوم، وكيـف نتحمـل مسـؤوليتنا في التواصـل مـع العـالم، وتبليغـه رسـالتنا، والقيـام بدورنـا. وبخاصـة أن عـالم اليـوم يـكاد يكـون مختلفـا تمامـا عـن المـاضي، في بنيتـه وفي رؤاه وفي واقعـه وفي تعقيداتـه وتشـابكاته بـين الامـم والشـعوب والحضـارات والأديـان، وصـارت القيـم فيـه في تزاحـم شـديد.

وقـد طـرح المؤتمـر مـن بـين مـا طـرح مـن قضايـا، سـؤالا مهـما عالـج فيـه إشـكالية منهجيـة مهمـة تتعلـق بكيفيـة التعامـل في حالة"تعـارض القيـم" وكذلـك عـن كيفية"تحديـد سـلمها عنـد التعـارض". وكيـف نـوازن بـين القيـم المختلفـة، ومـا هـي المعايـير التـي بهـا وعـلى اساسـها نقـدم او نؤخـر قيمـة عـن أخـرى. ومـن أمثلـة ذلـك قيمـة العـدل وقيمـة السـلم، وكيـف نتعامـل معهـما، ليـس في المسـتوى النظـري فحسـب، بـل في الواقـع، وواقعنـا الاسـلامي والعـربي يشـهد تصادمـا شـديدا بـين رؤى مختلفـة في كيفيـة التعامـل مـع هاتـين القيمتـين عنـد تواردهمـا في المحـل نفسـه.

ولعـل واقـع الثـورات العربيـة والثـورات المضـادة وسـعي الشـعوب إلى التحـرر، وسـعي الأنظمـة المسـتبدة والقـوى المتنفـذة إلى إجهـاض حريتهـا، واسـتغلال

العالم الخارجي لظروفنا، والتلاعب بمصيرنا، يطرح على الفاعلين من علماء ومثقفين وسياسيين وقادة، يطرح اسئلة مهمة للبحث في تحديد منهجي لكيفية التعامل في حالة التعارض أو التصادم او التنازع أو التزاحم بين هذه القيم، تحقيقا "للتفاعل الدائم بين المبدأ والمصلحة العملية"، وخروجا من حالة التراوح والتبطل والاهتلاك الداخلي بين قوى الأمة.

إننا في حاجة إلى حوار معرفي وأخلاقي حول هذه القضايا الملحة لتحقيق دورنا في الشهادة والخيرية والوسطية المخرجة من التفرق.

***

بعث الحضارة الإسلاميّة من جديد... دور النُّخبة

لقد قضى العالم الإسلامي وقتا طويلا من عمره الحضاري باحثا عن نقطة بداية لإعادة بناء حضارته من جديد، وإعطاء نفسه الحضاري دفعة تخرجه من حالة التراوح والتبطل التي استنفدت قدراته في جهود مضنية.

وكان لمالك بن نبي -عليه رحمة الله- رأي في مسألة التخلف الحضاري الشامل التي يعانيها العالم الإسلامي، ورأى منذ الأربعينات من القرن الماضي أن العالم الإسلامي يهدر طاقته في حل مشكلات جزئية متغاضيا عن المشكلة الكلية التي تحتوي كل تلك المشكلات، ألا وهي مشكلة الحضارة.

ورأى أيضا أنه طالما أن العالم الإسلامي يفتقد إلى الرؤية الواضحة لما يريد أن يقوم به فإنه لن يتمكن من صياغة مشروع للنهضة أو الخروج من التخلف، ولن يتمكن من تحديد وجهته ولا بناء منهج لبناء الحضارة، وذلك في تصوره راجع إلى أن "الرؤية تحدد المنهج والوجهة".

وبعبارة أخرى، فإن تصورنا لمشكلة العالم الإسلامي تصور جزئي ومفكك، ولذلك فإن فهمنا للمشكلة فهم جزئي وعقيم لأنه لا يحيط بكل أبعاد المشكلة، ولذلك فإن الحلول التي طُرحت كلها حلول جزئية، إن اهتمت بجانب أغفلت -عن قصد أو غير قصد- جوانب أخرى لا تقل أهمية عن الجانب الذي أولته اهتمامها. فأنتجت هذه التصورات الجزئية رؤى متناقضة ومشوهة وقاصرة في أغلب الأحوال، وغير قادرة على صياغة منهج لحل المشكلة الأم ولا لحل المشكلات الجزئية المتراكمة.

ولذلك فإن أسئلة كثيرة تطرح نفسها بقوة على كل متأمل في ما نحن فيه من تردٍّ وتهلهل وتخلف شامل في العالم الإسلامي؛ فلماذا لم نستطع امتلاك هذه الرؤية المتكاملة لمشكلتنا في العالم الإسلامي؟ ولماذا لم نستطع بناء منهج قادر على الخروج بنا من المحنة التي نحن فيها؟

لعل هذا النوع من الأسئلة تراود كل من اهتم بأمر المسلمين وسعى إلى المساهمة في فك خيوط الأزمة التي أحكمت. ولا شك أن كثيرا من الإجابات راودت كل من طرح هذه الأسئلة على نفسه.

وفي تصوري، فإن الإجابة عن الأسئلة السابقة يمر حتما بالإجابة عن سؤال أو أسئلة أخرى تتعلق بمن يتولى صياغة الرؤى الحضارية، ومن يقوم على بناء مناهج التغيير؟ هل هم عامة الناس؟ أم هم النخبة من المجتمع؟

وإذا استقرأنا التاريخ؛ تاريخ التغيرات الكبرى في تاريخ المجتمعات رأينا أن هناك دائما "فرقة" تقوم بالمبادرة بحمل لواء التغيير، وتتبنى الأفكار والمشاريع والبرامج الجديدة التي تسوغ على وفقها نمطا جديدا للتفكير وصورة جديدة عن العالم، وبالتالي منهجا جديدا لمعالجة الأمور.

ولنا في الأنبياء وأتباعهم أسوة حسنة، ولنا في تاريخ النبوات، وتاريخ الأفكار الكبرى، والأمم التي تعاقبت الريادة الحضارية في العالم، والمجتمعات التي سادت ثم بادت. لنا في كل هؤلاء خير دليل على أن هناك "نفر" من كل "فرقة" يقومون بتغيير "القوم" وبصياغة منهج جديد للحياة.

ولذلك فإن مسألة القيادة التي هي النخبة أو النفر أو الفرقة التي تتولى شؤون القوم وإنذارهم وإبلاغهم وقيادتهم بالتعبير القرآني هي المسألة المركزية في صياغة الرؤية والتصور الكلي الشامل من أجل أن تتبنى منهجا يخرج قومها من ظلمات الفوضى إلى نور المنهج الواضح الأسس البيّن الخطوات من أجل تحقيق مبادئ النخبة والمجتمع في أرض الواقع.

وفي هذا السياق فإن المشكلة في تصوري تتعلق بنمط القيادة التي تقود عملية التغيير الحضاري، ومدى وعيها واستيعابها للمعطيات المختلفة للواقع المعاصر ولما يتطلبه القيام بمشروع بناء الحضارة من جديد من وضوح للرؤية وتوفر منهج شمولي متكامل للتغيير.

والحديث هنا يتجه أساساً إلى العلماء والمجتهدين والمثقفين، إلى النخبة التي تقود المجتمعات الإسلامية، ومدى قدرة هذه القيادات على قيادة مشروع بناء الحضارة الإسلامية من جديد، إن نظريا أو عمليا.

ذلك أن مستقبل العالم الإسلامي يناط بالقيادة التي تمتلك القدرة على شق الطريق اليبس في بحر الأزمة الخانق، وأن تكون قادرة -في رأي الجماهير من الناس- على فعل المعجزات التي تحول مسار التاريخ في لحظاته المدلهمة، وتنير الدرب بفعل تجاوزها ليوميات الأحداث، من خلال قدرتها على استشراف المستقبل، ورسم مسارات العمل المستقبلي، والحد من الخسائر، وتحفظ المحتوى العقائدي لما تحمله من أفكار، حتى لا يفرغ من محتواه أو يحوّر أو يبدل.

غير أن مؤسساتنا بكل تنوعها؛ الدعوية والسياسية والثقافية والعلمية والاجتماعية وغيرها، غير قادرة اليوم أن تواكب نمط التحولات السريعة والهائلة التي تحدث بفعل عصر العولمة الذي نعيشه، ولذلك فهي غير قادرة على صياغة المجتمع وفق التطلعات التي تؤمن بها.

كما أن النخبة بمختلف طبقاتها اليوم في عالمنا الإسلامي غير قادرة على أن تحمل في وعيها آمال الجماهير وغير قادرة على توجيه هذه الجماهير أيضا. بل إن هذه النخبة التي من المفترض فيها أن تكون هي المعبر عن آمال وتطلعات الناس من جهة، وأن تكون هي مجسات الوعي من جهة أخرى قد انغلقت على نفسها، ولم تعد قادرة على متابعة التغيرات والأحداث الكبرى التي تجري في عالم اليوم.

ولذلك فإن النخبة في العالم الإسلامي اليوم مدعوة إلى مراجعات جوهرية لكل الأطروحات التي تتداولها منذ أمد، وعلى مختلف الأصعدة، ومن كل الأطراف. وعلى النخبة أيضا أن تعيد ترتيب أولوياتها ووضع خط فاصل وواضح بين القيم المبدئية التي لا يمكن أن تتغير وبين المواقف والخطوات الإجرائية التي يمكن التراجع عنها أو تغييرها أو تطويرها أو تجاوزها إلى ما هو أكثر نضجا ونجاحاً وقابلية لتحقيق مقاصد القيم الأصلية المبدئية وتحقيق مصالح الأمة.

وعليه فإن النخبة مطلوب منها اليوم أن تعيد تشكيل مواقفها وفق المبادئ الكبرى للأمة بشكل واضح وصريح ومؤسس ومنهجي، وأن لا تلجأ إلى التلفيق بين المفاهيم، ولا التركيب المشوه بين مختلف المقولات والتصورات. كما أن على النخبة أن تعيد النظر في مفاهيمها التقليدية الموروثة سواء من تراثنا الإسلامي أو من التراث الحضاري للأمم الأخرى، ويكون ذلك وفق رؤية علمية مبنية على الحجة البينة والبرهان العلمي والحوار المنفتح على الآخر، القابل للحقيقة مهما كان مصدرها، خاصة إذا علمنا أن الإسلام لا يُخشى عليه من أي فكرة أخرى، بل إن الإسلام ذاته ما هو إلا رسالة لإتمام المكارم التي بين الناس.

ومن هذا المنطلق، فإن النخبة يكون أمامها مجال فسيح للاجتهاد المحتكم إلى القيم الثابتة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تسترشد بعد ذلك بما استقر من صالح الكسب البشري من فكر وثقافة وحضارة شحذتها وهذبتها الخبرة الإنسانية الطويلة الأمد.

وعليه، لا نكون في اجتهادنا أمام خطر الانحراف عن القيم الكلية الثابتة لأن القرآن مصدِّق ومهيمن على كل تجربة أو فكرة، ولا نكون أيضا أمام خطر التخلف عن مواكبة الأحداث، لأن الانفتاح على مختلف التجارب يذكي

الخبرة وحس الخطأ والصواب لدى الأمة، ويقوي مجسات التحقق من صلاح التجارب على اختلاف مصادرها ومدى مواءمتها لمختلف المشكلات التي تهدف النخبة لحلها.

ونختم حديثنا هذا بالتأكيد على أن سلوك نهج الحضارة، والعمل على بعث الحضارة الإسلامية من جديد، والتمكين للإسلام والمسلمين لن يتحقق طالما بقيت النخبة في العالم الإسلامي غير قادرة على بناء رؤية واضحة من خلالها تستطيع تحديد القيم والمبادئ الكلية وتحديد المنهج ذي الإجراءات العملية لتحقيق مقاصد هذه القيم في دنيا الناس.

***

العولمة: الظاهرة والتحديات

ظاهرة العولمة:

تعد العولمة أهم ظاهرة تشهدها الحضارة الإنسانية والتاريخ العالمي في وقتنا الحاضر، وهي مصب لمجرى التاريخ الذي طالما سارت به سننه ليصل بنا إلى تقدم بشري في مختلف مجالات الحياة بطريقة أصبح الوجود الإنساني شديد التشابك والارتباط.

كما أن العولمة مسار من عملية أوسع تنخرط من خلالها الشعوب والدول عبر القارات والأقاليم في ترابط وعلاقات أوثق، أفرزت نمطا من العلاقات ومجموعة من القيم، وأظهرت للوجود نوعا من المؤسسات المشتركة لم تكن معهودة من قبل.

ولعل الطابع التكنولوجي والاقتصادي والإعلامي للعولمة زاد من أثرها الثقافي والاجتماعي والسياسي، فصارت الأرض كلها تقوم مبادئ السوق والتبادل التجاري والإعلامي والتكنولوجي، وانتهت بموجبه كثير من مفاهيم الاستقلال والصياغات المحلية لمفردات الحياة، وتشكل وعي بالوجود المشترك، الذي يصنعه البعض ويستهلك مفرزاته البعض الآخر.

تحديات العولمة:

إن العولمة تواجهنا بمجموعة من التحديات في مختلف المستويات، وفي مقالنا هذا نحاول أن نتناول أهم ثلاثة مستويات تواجهنا فيها تحديات كبرى في عصر العولمة، هذه المستويات هي: المستوى المعرفي والمستوى الأخلاقي والمستوى الكوني.

١. تحدي النموذج المعرفي:

إن النسق المعرفي الغربي الذي يؤطر المعرفة ويثريها بمقولاته، والرؤية الغربية لله - عز وجل - والكون وللكون والحياة هي التي تسيطر على توجهات أغلبية شعوب الأرض الآن، وتحاصر ثمرات هذا المنهج وعي الإنسان وفكره وسلوكه ورغباته، حتى تكاد تأسر رؤية الإنسانية للوجود، فأصبحت الحضارة الغربية "قانون العصر" المهيمن[١].

فالغرب أتلف قداسة الوجود في النفوس والضمائر والثقافة، بسبب منشأ ثقافتها التي أطلقت عليها اسم العلمية، والتي أخضعت كل شيء وكل فكرة إلى مقاييس الكم منذ عهد ديكارت. ذلك أن المادية المتمركزة، والكمية التي أشيع عنها أنها هي العلم وهي المنهج العلمي الصحيح، صارت معيارا لقيا مدى صحة أو علمية أي فكرة أو شيء في هذا الوجود.

فالتطور الهائل الذي عرفته العلوم الطبيعية والتكنولوجية وحتى الإنسانية، قائم على الفكر المادي، والفلسفة المادية التي طغت على الحضارة المعاصرة، سواء في أصولها النظرية أو في تطبيقاتها الاجتماعية والسياسية.

فصار المجال العقائدي وفق النظرة المادية الوضعية من قبيل الشأن الشخصي الذي لا يخضع لمنطق البرهان الاستدلالي العقلي، وبالتالي لا يمكن اعتباره علما، وفي هذا يقول أنجلز: "إن أي عقيدة دينية ليست سوى انعكاسة خرافية في ذهن الإنسان للقوات الخارجية التي تسيطر على حياته اليومية، وفي ذلك الانعكاس تكتسي القوات الأرضية شبح قوات لاهوتية"[٢].

(١) انظر مقالنا: الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية رؤية معرفية، إسلامية المعرفة، العدد الرابع، ذو القعدة ١٤١٦هـ/ أبريل ١٩٩٦م، ص ٢١١-٢٢٥.

(٢) نقلًا عن أحمد عروة، العلم والدين مناهج ومفاهيم، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٠.

فالمنهج المعرفي الغربي مادي في أساسه، متمركز على المادة، وبالتالي فهي تنكر الغيب وما يتصل به من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وترفض الحضارة الغربية وفق منهجها العلمي أي مصدر آخر للمعرفة خارج عن نطاق الفحص الحسي المادي، الخاضع للتجربة المخبرية أو المشاهدة.

وبما أنها مادية فإنها تخضع كل شيء لقوانين المادة من تحول وتغير، ولا يوجد هناك ما يسمى ثابت مثل القيم والأخلاق، لأنها ليست أشياء يمكن تقديرها بالكم، فالصدق بما انه لا يمكن وزنه ولا قياسه بالكمية أو بالأرقام فهو - في المفهوم الغربي - شيء مفتعل وغير موجود، ولا ثمرة من ورائه.

والعلوم الإنسانية في طابعها العلماني الحديث وزخم الاكتشافات الخارقة والمكتسبات الهائلة التي أحرزت عليها أدت من حيث أبعادها الأخلاقية والروحية والإنسانية إلى متاهات عقائدية. فسلبت الإنسان من مكوناته الأساسية التي ترتفع بها فطرته البشرية، وتعتدل بها نفسيته، وتتزكى بها عقليته ويتسامى بها ضميره وروحه[1].

٢. تحدي الأزمة الأخلاقية:

من أهم التحديات التي تواجهنا بها العولمة تحدي الفساد الأخلاقي الذي يكتسح العالم بفعل غياب بعد الأخلاق في الحياة المعاصرة، والقيمة الخلقية أرقى من السلوك التجاري الذي يظهر في تصرفات الكثير، وليس الغاية من ذلك نداء الضمير بقدر ما هو بروتوكولات وإتكيت وبالتعبير الغربي (Ethics)، وهناك فرق بين الخلق الذي هو ألصق بالفطرة ونداء الضمير والتزام التقوى، وبين "الإثيكس" بالمفهوم الغربي الذي يراعي المظهر الشكلي دون الجوهر.

لقد غدت الأخلاق بالمفهوم الغربي ذات بعد نفعي تجاري، فالرجل لا

(١) نفس المرجع، ص١٥٣. بتصرف.

يكذب لأن سمعته تتأثر، فإذا لم تتأثر فليس في الأمر تثريب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التحلل من القيم صار موضة، وعلامة على الحضارة الغربية التي هتكت الأستار وعرّت الإنسان، وتجاوزت في إباحيتها كل وصف، وهذا الذي دفع كثيراً من الشباب إلى الاستقالة الاجتماعية من الحياة؛ إما عن طريق الانتحار بطرقه المختلفة، وإما بالانغماس في عالم الرذيلة والمخدرات والفجور، مما أصبح يهدد الأسرة بالانهيار والتفكك، ويقضي على قيم التآلف والرحمة والعطف، وكل القيم الروحية التي تفتح أمام الإنسان أبواب الأمل في الحياة الكريمة، وتخفف عنه آلام حضارة البعد الواحد.

وللأخلاق دورها الريادي في تحقيق سعادة البشرية، وفي صياغة وجهة البنيان الاجتماعي، وتزويده بالمبررات الغيبية اللازمة لحفظ التوازن بين مطالب النفس وتطلعات الروح، وبين زخم الحركية الاجتماعية.

يقول مالك بن نبي في موقع الأخلاق من البناء الاجتماعي: "إن القيمة الأخلاقية لها أهميتها في الحفاظ على البناء الاجتماعي والحضاري، إذ تحمي البنيان الاجتماعي من التفكك وتعطيه قيمة فوق أرضية، وتدفع النفَس الحضاري إلى الاستمرار في الإنجاز وتزوده بالمبررات التي هي أسمى من الكسب المادي وحياة الترف. ومن هنا ندرك سر القيمة الأخلاقية التي خص بها محمد ﷺ الفضائل الخلقية باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارات"[1].

٣. تحدي الفساد الكوني:

إن المجتمع الغربي والعالم كله يدفع حاليا ثمن الثورة الصناعية...وملاحظة سريعة لبعض الإحصاءات تشير إلى التدهور الخطير الذي أحدثته هذه الثورة في الطاقة الإنتاجية للطبيعة، وفي ازدياد التلوث، لدرجة تهدد الجنس البشري... فالغابات مثلاً بدأت تضمحل بمعدل ١٦ مليون هكتار سنوياً، ويفقد العالم

(١) وجهة العالم الإسلامي، ص٣٠.

٢٤ مليار طن من تربته السطحية، وتختفي العديد من المناطق الرعوية، وانخفض مستوى المسطحات المائية نتيجة للضخ الجائر لمياه الري... وتشير تقديرات الاتحاد العالمي لصون الطبيعة أن ١٢٨٣٠٠٠ جنس نباتي وحيواني مهدد بالانقراض، وإلى اختفاء ٣٠ ألف نوع سنويا"[١].

كما أن تكنولوجيا القتل الجديدة تهدد بقتل البشر وغيرهم من الكائنات الحية، وأن الأسلحة الكيميائية، والبكتيرية الفيروسية، والنووية، من أحدث تقنيات هذه التكنولوجيا القاتلة للحياة على كوكب الأرض.

لقد حقق الإنسان الذروة فيما يستطيع به أن يدمر كل الكائنات الحية على الأرض والبحار... إن قنبلتي هيروشيما وناكازاكي وما أحدثتاه من الدمار... وحادثة محطة القوى النووية في تشيرنوبيل، قد أظهرت كيف يمكن حين لا يتم التحكم، في آلية محطة القوى النووية، أن تقتل المواد النووية المتفجرة الشديدة السريعة كل إنسان بالقرب منها، وتسبب دماراً إشعاعياً بالغ الخطورة للناس والكائنات الحية التي تعيش على مسافات بعيدة، بل حتى في القارات البعيدة[٢].

و"إذا نظرنا إلى مخزون الولايات المتحدة وروسيا الذي يصل إلى مئة ألف سلاح نووي، تبلغ قوة كثير منها أكبر من القنبلتين اللتين ألقيتا على اليابان آلاف المرات، فإذا انفجر حتى جزء قليل منها فليس هناك احتمال أن يبقى على قيد الحياة أي كائن من الكائنات الثديية، كما سوف تقاسي الكائنات الأخرى من أضرار مرعبة، ولن يصبح العالم قابلاً للحياة بالنسبة للجميع"[٣].

***

(١) منذر سليمان، "مقولة هتنغتون.. صدام للحضارات أم دعوة للتطهير الحضاري؟"، الحوار، نيسان/ أبريل١٩٩٧، ص٢٤.

(٢) سير روي كالن، عالم يفيض بسكانه، ترجمة: ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة (٢١٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٦م، ص ص١٤٧-١٤٩، بتصرف.

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٩.

العولمة: وعي الذات سبيل النجاة

في ظل هذه التحديات في مستواها العلمي، والسياسي، والاجتماعي، والحضاري، وبخصائص العولمة المتميزة بارتباط المصير الإنساني ببعضه البعض، وبإفلاس الأديان الأخرى أمام تحديات العلم، وهيمنة النموذج الغربي، الذي أصبغ فوضاه على العالم، فأصبحت أزمته أزمة عالمية، تأثرت بها كل الأمم والمجتمعات، إضافة إلى أزمتنا الخاصة بنا. وفي سبيل مواجهة التحديات التي يطرحها عصر العالمية، سواء على مستوى تحدي النموذج المعرفي، أو تحدي الأزمة الأخلاقية، أو تحدي الفساد الكوني.

في هذا كله، ما هو دورنا؟ وما العمل الذي يقوم به المسلم حتى يحفظ ذاته من الذوبان؟

وكيف يساهم في حل أزمة الإنسانية التي تنتظر منقذاً، يرفعها من مهاوي الإخفاق والجدل الوضعي وأوهام المادية، إلى مستوى نور الهدي الرباني، واستقامة المنهج، ووضوح الرؤية القائمة على التوحيد لله - عز وجل -؟

لا شك أن المأزق العالمي، الذي تعيشه الإنسانية إن على مستوى الروح أو المادة أو العقل وإن على مستوى الحضارة بعمومها، لا يمكن مواجهتها بالانكفاء على الذات، أو بالاستقالة من مجال صناعة التاريخ، كما "لا يمكن مواجهته بانفعال عاطفي بالإسلام، أو إيمان نظري بقدرة الإسلام على حل مشكلات البشرية، وأنه صالح لكل زمان ومكان"[1].

(١) فريدة صادق زوزو، البعد المقاصدي في فقه عمر بن الخطاب وأثره في المذهب المالكي، رسالة ماجستير غير منشورة، ص١٣.

وإذا كان العالم اليوم موحد في مصيره، ويتوجه نحو تجميع قواه في صورة مصير مشترك، قد يصاغ على غير ما نرغب، وأن البشرية صارت تعمر الأرض، وكأنها في عمارة واحدة تتقاسم طوابقها الأمم، تربطهم وشائج، مهما كانت هذه الوشائج. فما هو دورنا نحن؟

فهل نتمثل قول الشاعر:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

أم هل نتبع سنن من سبقنا إلى الحضارة والتقدم، شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضب دخلناه[١]؟ أم هل يكون لنا دور؟ فنوطن أنفسنا، جاء في الحديث: "لا يكون أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس فأحسنوا وإن أساؤوا تتجنبوا إساءتهم"[٢]، وننقذ سفينة البشرية من الغرق، وننجو وينجو معنا غيرنا، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها..."[٣].

إن أي دور للمسلم في هذا العصر، لا يمكن تصوره إلا دوراً قائماً على ركائز نحسبها مهمة، هذه الركائز تضبط هذا الدور، وتؤصله، وتحقق فيه الفعالية، وتمنحه الوعي، وتجعله عملاً محققاً للقدوة العلمية والعملية. هذا الدور يقوم

(١) الحديث: "لتتبعن سنن من كان قبلكم..."

(٢) انظر: كنز العمال، رقم٤٣٠٣٥، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج١٥/ ص٧٧٢؛ والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، رقم٢٠٧٥، وقال حسن غريب، تحفة الأحوذي للمباركفوري، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ج٦/ ص١٤٥؛ وانظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للشيخ القاري، كتاب الآداب، الفصل الثاني، رقم٥١٢٩، عن حذيفة، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ج٨/ ص٨٥٣. كما أخرجه الهيثمي في الزوائد عن ابن مسعود بلفظ آخر، انظر: مجمع الزوائد، باب القياس والتقليد، ط٢، دار الكتاب العربي، ج١/ ص١٨٠.

(٣) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الشركة، باب(٦)، هل يقرع في القسمة؟ والاستفهام فيه، رقم٢٤٩٣، انظر: فتح الباري، المكتبة السلفية، القاهرة، ج٥/ ص١٥٧.

على نظرية واضحة عمادها الوحي إطاراً وتصوراً، والواقع ممارسة وإعماراً.

ومن أهم هذه الركائز التي تشكل ضامنا لتجاوز التحديات والحفاظ على كينونتنا الحضارية نجد الوعي بالذات الإسلامية، والوعي بخارطة الواقع الحضاري، وتكامل الأصالة والفعالية، ودخول التاريخ من باب الواجب، وتقديم نموذج عملي للإسلام مثلما كان على عهد السلف الصالح.

والوعي بالذات الإسلامية أمر ضروري، ومهم ودونه لا يمكن أن نحل مشكلاتنا، ولا أن نبلِّغ الهداية إلى الآخرين، ورسالتنا في عصر العالمية تتحدد بمدى فهمنا وتمثلنا للقيم الإسلامية، ولا يمكن أن نحقق التغيير المطلوب إذا لم نرتفع إلى مستوى الإسلام؛ لأننا لكي يتحقق التغيير في محيطنا يجب أن يتحقق أولا في أنفسنا، وبذلك تتوافر شروط رسالة المسلم في هذا العصر، وإلا فإن المسلم لن يستطيع إنقاذ نفسه ولا إنقاذ الآخرين.

ثم إذا كان منهج الرسالة يقتضي التغيير، والتغيير يقتضي تغيير ما بالنفوس أولا، إذا كان منهج الرسالة يقتضي هذا، فإننا نستطيع أن نتكلم عن وسائل الرسالة أو الطرق العملية لتطبيق هذه الرسالة كي تفي بمهمتها، ألا وهي الإنقاذ أو مواجهة حالة إنقاذ أو حالة طوارئ تخص المسلم وتخص الإنسانية عامة. عندها يجب على كل مسلم أن يحقق بمفرده شروطاً ثلاثة: أن يعرف نفسه، وأن يعرف الآخرين، وأن يعرف الآخرين بنفسه ولكن في الصورة المحببة[1]. والأمر هنا يتمثل في الانسجام مع أهداف وغايات الرسالة الإسلامية، والتطابق معها، على مستوى التصور العقدي، وعلى مستوى الممارسة العملية.

والوعي بالذات الإسلامية يعني تحقيق وتمثل المثل الإسلامية، وأن يعيشها الفرد المسلم والمجموع، وأن تصبح صبغة لمفردات الحياة اليومية للمسلم، وليس فقط التلفظ بعبارات التوحيد والتوكل والرضا والإتقان للأعمال، وغيرها.

(١) دور المسلم ورسالته، ص ص٥٨-٥٩.

فالتوحيد الذي هو جوهر الذات الإسلامية، ينبغي أن يحياه المسلم في أبعاده الاجتماعية والنفسية والعلمية، فعلى المستوى النفسي يربط المسلم مصيره وأمله وتوجهاته وأهدافه بالله - عز وجل -، فيخلص التوجه إلى الله، ليحقق وحدته من التمزق، وعلى المستوى الاجتماعي تنتفي مظاهر الصراع والتناقض ويكون توجه المجتمع نحو التكامل والتآلف، فتحكمه مبادئ الاستخلاف والإعمار والتسخير والعبودية لله - عز وجل -، وعلى المستوى العلمي يتحقق لدى المسلم وحدة الحقيقة، وانسجام سنن الله في الكتاب وفي الأنفس والآفاق والتاريخ، فلا يحدث عنده تناقض بين الوحي والكون، ولا بين الوحي والعلم؛ لأن الوحي هدي صادق، والعلم توجه صادق بحثا عن الحقيقة.

لهذا، فإن الوعي بالذات الإسلامية يقتضي أن يحياها المسلم ويحقق بها غايات الحق من الخلق، كما كان الجيل الأول رضوان الله عليهم، إذ كانوا قرآنا يمشي، فالمسألة لا تتمثل في تلقين أو في إعادة تلقين المسلم عقيدته؛ ولكنها تتمثل في إعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها في الحياة[١].

ثم أن مواجهة أي غزو فكري تتطلب هذا الوعي بالذات، حتى يميز المسلم بين تفوق ذاته الإسلامية، وقصور مصدر هذا الغزو، وبالتالي تحقيق الحصانة من الغزو، والقضاء على عنصر القابلية للاستضعاف والغزو.

فقبل أن نواجه الغزو الفكري، لا بد من بناء شخصيتنا، وتحصين أنفسنا، لنصبح ممنوعين من تأثير الغزو، ليس عندنا قابلية له... وإذا تحصنا، لم يعد للغزو تأثير فينا.. ولهذا لا بد لنا إذا رغبنا ألا تؤثر فينا مخططات المتربصين، أن نبني شخصيتنا بحيث تكون مصبوغة بصبغة الإسلام، وموسومة بميسم الإيمان[٢].

(١) قضايا كبرى، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩١م، ص١٢٣.

(٢) أحمد عبد الرحيم السائح، في الغزو الفكري، ص ص٧٩-٨٠.

والوعي بالذات الإسلامية يستتبعه ويرتبط به ويكمله الوعي بالخريطة الحضارية للمجتمع الإنساني الراهن الذي يتشكل من حضارات، وكل حضارة تعبر عن نموذج حياتي متميز عن غيره، وفهم الحضارة مقرون بوعي مذهبيتها ونظامها الفكري ومشروعها الاجتماعي ومنهجيتها المعرفية التطبيقية.

كما أنه من الواضح أن الضمير الإنساني في هذا العصر لم يعد يتكون في إطار الوطن والإقليم، بل إن الضمير الإنساني إنما صار يتكون على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها الجغرافية. فثقافة العالم أصبحت تتحدد أخلاقياً وتاريخياً داخل تخطيط عالمي[١].

خاصة مع التطور الذي دفعت به الحربين العالميتين الأولى والثانية، وتلاهما من تطورات وأحداث عالمية أحدثت تأثيراً في وعي الإنسان واهتماماته ولم يعد وعيه يتشكل بشكل انعزالي عن المؤثرات الخارجية، ومن هنا فالوعي بها، ووضعها في الحسبان يمكن من التفاعل الإيجابي معها. لذلك فإن المسلم نفسه ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الرحبة، حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته في هذا الإطار العالمي[٢].

ولم يعد من المستساغ علمياً وواقعياً الغفلة عن ما يجري من حولنا في القرية العالمية، وإلا فإن وعينا سيصيبه الضمور، ونجهل المعالم التي تتحرك على منحاها أحداث التاريخ، فالمستوى الشخصي للمسلم حتى ولو نما نمواً نسبياً، يمكن أن يبدو في حالة تضاؤل، بقدر ما ينمو تطور الآخرين بسرعة أكثر، والواقع أن الوعي الاجتماعي الذي كان يتكون منذ حين في دائرة محدودة أمام منظر محدد عموماً، بنطاق بلاد معينة هي الوطن، قد أصبح يتكون اليوم في إطار أكثر امتداداً بدرجة لا تضارع، وفي منظر أكثر انفساحاً.

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١٢١.

(٢) مشكلة الثقافة، ص١١٦.

فالوعي بالذات الإسلامية والوعي بخارطة الوجود الحضاري الإنساني يتشكل ويتطور وينضج باتساع دائرة الاهتمام التي يوليها كل منا عنايته، فبالنسبة لفرد من الجزائر ودوائر وعيه المتعاقبة من الجزائر إلى العالم العربي إلى العالم الإسلامي وصولاً إلى الدائرة الإنسانية، يمكن أن يتشكل وعيه حسب اتساع دوائر الاهتمام فبقدر ما يعي فيه الفرد المولود في الجزائر أو السعودية مثلاً دائرته ويتخطى إلى الوعي بمشاكل العالم العربي واتجاهاته وآماله، بقدر ما يكتمل وعيه ذاته وينمو مستواه الشخصي، وبقدر ما يتخطى دائرة داخلية إلى أخرى خارجية بقدر ما ينمو عالم أفكاره؛ وعندما يبلغ وعيه الاكتمال المتطابق مع الدائرة العالمية يكون مستواه الشخصي قد بلغ أقصى اكتماله، بحيث ينبث حضوره في سائر أجزاء المعمورة.

لهذا فالاهتمام بالآخرين يفرضه واجب ديني إسلامي لمعرفة مصير المسلمين في العالم وكيفية الحفاظ على وجودهم الديني والحضاري وبعث حضارتهم من جديد، ويفرضه المنطق الإنساني، وتحتمه التداخلات بين الشعوب والأمم في عصر العولمة، كما أن في حياة الشعوب التي تواجه في عصر العولمة مشكلات خاصة بكيانها، ومشكلات مشتركة، تعبير عن امتداد كيانها في عالم الآخرين، وتأثير العامل التكنولوجي الذي صاغ بالنسبة لكل شعب ضرورات من نوع خاص تفرض على حياته التزامات ومسؤوليات جديدة في نطاق أوسع من نطاقه التاريخي الجغرافي المعتاد[1].

***

(١) مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م، ص ٧-٨.

الفكر الإسلامي وتحديات العولمة

الفكـر الاسـلامي وتحديـات العولمـة. جملـة تحمـل في طياتهـا إشـكالات عديـدة، تحتـاج منـا أن نقـف عندهـا تحليـلا وتركيبـا لنخـرج بصـورة عـن الفكـر الاسـلامي والتحديـات التـي تفرضهـا العولمـة؛ بـما تحملـه هـذه التحديـات مـن فـرص ومـن عقبـات.

ولعـل سـائلا يتسـاءل مـا المقصـود بالفكـر الاسـلامي؟ ومـا الـذي يجعـل الفكـر إسـلاميا؟ ومـا هـي العولمـة؟ ولمـاذا هـذا الانشـغال بهـا؟ وهـل فعـلا تطـرح تحديـات أمـام الفكـر الاسـلامي؟ ومـا هـي هـذه التحديـات؟ وهـل هـي تحديـات عابـرة أم وجوديـة تقتـضي منـا معالجـات تتميـز بأنهـا إسـلامية وبأنهـا راهنـة تواجـه التحديـات الملحـة؟

الفكر كيف يكون إسلاميا؟

الفكـر يكـون إسـلاميا إذا انطلـق مـن الرؤيـة الاسـلامية للكـون والحيـاة وسـعى لتحقيـق مقاصـده في التوحيـد والتزكيـة والعمـران، والفكر هـو الجهد العقـلي لإدراك العـالم وفهمـه والتعامـل معـه، بـما يتضمنـه هـذا العـالم مـن ثوابـت ومتغـيرات. فـإذا انطلـق مـن الرؤيـة الإسـلامية للكـون والحيـاة وسـعى لتحقيـق مقاصدهـا فإنـه يصـير إسـلاميا. وبـما أنـه فكـر، فإنـه مرتبـط بظـروف المـكان والزمـان وسـقف المعرفـة ومتطلبـات العـصر، يعمـل عـلى وعيهـا منطلقـا مـن رؤيـة الاسـلام للعـالم، وسـاعيا لتحقيـق الأهـداف والمقاصـد العليـا للإسـلام في تحقيـق الانسـان لوجودهـا خلافـة في الارض وعـمارة لهـا وعبـادة للبـاري عـز وجـل.

وبما أن الفكر يتميز بتاريخيته من جهة وارتباطه بالثوابت من جهة أخرى، فإنه يبقى إسلاميا ما ارتبط بالرؤية الإسلامية الكلية وما استلهم القيم الثابتة، ويكون معاصرا ما ارتبط بإحداثيات الزمان والمكان في متغيراته وما تقتضيه المرحلة التي يعيشها.

وفي هذا السياق تحضرني مقولة للأستاذ مالك بن نبي بقوله: "لا يجوز لأحد أن يضع الحلول و المناهج، مغفلاً مكان أمته و مركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن في ذلك تضييعاً للجهد، ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد في هذا المجال جهل وانتحار"[1]. فالفكر الاسلامي ينبغي أن يكون إسلاميا في رؤيته وفي أصوله وقيمه، ولكن أيضا ليحقق إسلاميته ينبغي أن يكون حاضرا في زمانه، يتفاعل معه، ويقدم التشخيصات اللازمة، والحلول الممكنة، بما تقتضيه المرحلة التي فيها الأمة.

ولعل هذا يمهد الحديث عن العولمة باعتبارها المرحلة التي نعيشها. ويفرض علينا الحديث عن مفهومها وما تحمله من تحديات في وجه الفكر الإسلامي.

العولمة آخر موجات الحداثة:

لقد أصبح موضوع العولمة وما يرتبط به من مظاهر، من الموضوعات الأكثر جدلاً على الساحة العالمية، حتى بات يشغل الخاصة والعامة من الناس، سواءً من حيث آثار ظاهرة العولمة في مجالات الحياة المختلفة، أو من حيث الموقف منها وسبل التعامل معها.

وتعد العولمة أهم ظاهرة تشهدها الحضارة الإنسانية والتاريخ العالمي في وقتنا الحاضر، وهي مصب لمجرى التاريخ، الذي طالما سارت به سننه، ليصل بنا

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ص ٤٧ .

إلى تقدم بشري في مختلف مجالات الحياة، بطريقة أصبح الوجود الإنساني فيها شديد التشابك والارتباط.

كما أن العولمة مسار من عملية أوسع، تنخرط من خلالها الشعوب والدول عبر القارات والأقاليم في ترابط وعلاقات أوثق، أفرزت نمطاً من العلاقات ومجموعة من القيم، وأظهرت للوجود نوعا من المؤسسات المشتركة لم تكن معهودة من قبل.

ولعل الطابع التكنولوجي والاقتصادي والإعلامي للعولمة زاد من أثرها الثقافي والاجتماعي والسياسي، فصارت الأرض كلها تقوم على مبادئ السوق والتبادل التجاري والإعلامي والتكنولوجي، وانتهت بموجبه كثير من مفاهيم الاستقلال والصياغات المحلية لمفردات الحياة، وتشكل وعي بالوجود المشترك، الذي يصنعه البعض ويستهلك مفرزاته البعض الآخر[1].

ولعلنا هنا نشير إلى مسألة مهمة تتعلق بوعي متقدم قدمه مالك بن نبي في هذا الموضوع. ذلك أنه منذ أكثر من خمسين سنة، وعندما كان العالم كله يكتب عن سيادة الشيوعية وانتشارها في العالم، لاحظ مالك بن نبي ملاحظة مهمة جداً في سياق رصده للتحولات التي طرأت على العالم بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد ذكر ابن نبي في كتابه (مذكرات شاهد للقرن) أنه بعد الحرب العالمية الثانية "بدأ العالم يتأمرك"، وبّين أن العالم كله بدأ يقلد أمريكا في طريقة حياتها وفي أزيائها وفي أفلامها، ولم يسلم من ذلك الأوروبي أو غيره، كما أنه أشار في كتاب آخر له، وهو: (وجهة العالم الإسلامي) بأن الغرب مهما بلغ من تقدم فإنه فقد بريقه في العالم الإسلامي ولم يعد نموذجاً يقتدى.

(١) بدران بن لحسن، العولمة: الظاهرة والتحديات، موقع المسلم. أنظر:
http://www.almoslim.net/node/82775

والآن وبعد خمسين سنة، وبعد أن صار أمر أمركة العالم مشروعاً واضح المعالم، وصار ينتقده كل الناس غربيهم أو شرقيهم انتبهنا نحن المسلمين إلى خطر هذه الأمركة التي جاءت تحت غطاء العولمة[١].

هذا بالضبط هو جوهر العولمة في عمقها، فإنها إكساب المحلي (الأمريكي مبتدأ ثم الغربي بعد ذلك) طابع العالمية، من خلال تعميم النموذج الأمريكي للحياة والفكر والثقافة على بقية الثقافات في العالم بوسائل الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والاعلامية والسياسية متجاهلة في ذلك الخصوصيات والمحليات.

إن بن نبي برؤيته الاستشرافية وبوعيه بالتبدلات العميقة التي بدأت تحدث في زمانه، رصد مؤشراتها الأولى منذ الربع الأول من القرن العشرين بنظره الثاقب. ولو نظرنا في تعريفات غيره من المعاصرين للعولمة فإننا نكاد نجد تطابقا في الرؤية.

فالجابري في حديثه عن العولمة يرى أنها "العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات على بلدان العالم أجمع" وهي أيضاً أيديولوجياً تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته"[٢].

كما يذهب صادق جلال العظم إلى أنها "حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء، في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ"[٣].

(١) بدران بن لحسن، قيمة ما عندنا من أفكار، موقع المسلم. أنظر:
http://www.almoslim.net/node/82382

(٢) العرب والعولمة: الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨م، ص١٣٧.

(٣) صادق جلال العظم، ما هي العولمة؟ مجلة الطريق، بيروت، سنة ٥٦، عدد ٤، يوليو ـ أغسطس ١٩٩٧م.

فجوهر العولمة هي أمركة للعالم وتعميم للنموذج الأمريكي فكريا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا، وجعله نمط الحياة الأوحد، والثقافة المهيمنة، والمعيار للتقدم والتحضر.

ولعل هذا ما جعل الدول والمؤسسات والمفكرين يهتمون بالظاهرة ويدرسونها ويحاولون فهم آليات اشتغالها وما تحمله من تحديات وما تفتحه من فرص. وفي هذا السياق مثلا نجد أن المعهد العالمي للفكر الاسلامي عقد ندوات كثيرة في دراسة الظاهرة، ولعل من أوائلها ندوة "العولمة وانعكاساتها على العالم الاسلامي"[١]، لأن هذه الظاهرة شغلت العالم عموما والعالم الإسلامي بوجه خاص، وشغلت مساحة كبيرة من الدراسات والبحوث، وعقد من أجلها الكثير من الندوات والمؤتمرات، وأصبحت موضوعاً للدراسة ضمن مناهج الثقافة والفكر الإسلامي المعاصر. وهدفت الندوة إلى البحث في الظاهرة والتحديات التي تطرحها والفرص التي تفتحها في وجه الفكر الاسلامي.

تحديات العولمة:

والحقيقة أن مظاهر العولمة وظواهرها وتحدياتها متنوعة ومتعددة، ولا تقتصر على الجوانب الاقتصادية والإعلامية التي تبدو أكثر إثارة للاهتمام في كثير من الأحيان، إما نتيجة للضغوط التي تمارسها المؤسسات الاقتصادية والإعلامية والرغبة في توسيع أسواقها ومضاعفة أرباحها، أو للفت الانتباه عما هو أكثر عمقاً وأشدّ خطراً من الانعكاسات الاقتصادية، بل تمتدّ هذه المظاهر إلى قضايا الواقع الاجتماعي كله، وبخاصة قضايا الفكر والثقافة والتربية[٢].

(١) عقدت الندوة الإقليمية في عمان - الأردن حول "العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الاقتصادي والثقافي"، خلال الفترة ٥-٦ ربيع ثاني ١٤٢٧هـ، الموافق ٣-٤ أيار (مايو) ٢٠٠٦م، بالتعاون بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي- مكتب الأردن، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، وجامعة آل البيت- الأردن.

(٢) المرجع نفسه.

وليس من المستغرب أن يحقق نموذج حضاري له مقدرات تعبوية وتنظيمية مرتفعة انتصارات باهرة، على المستويين المعنوي والمادي[١]. ولكن - كما يقول مالك بن نبي- أن هذا الإشعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة الغرب، هو الذي يجعل من فوضاه الحالية مشكلة عالمية، ينبغي أن نحللها وأن نتفهمها في صلاتها بالمشكلة الإنسانية عامة، وبالتالي بالمشكلة الإسلامية[٢].

وفي المستوى الفكري والثقافي، وبالرغم من أن ظواهر العولمة الثقافية كانت تبرز إلى ساحة العالم منذ آلاف السنين دون أن تولِّد التجانس الثقافي، بل كانت تؤدي باستمرار إلى نتائج معقدة من التبادل والتفاعل، يرافقها تهجين وتطوير للثقافات المحلية، فإنه مع العقد الأخير من القرن العشرين دخل العالم في حالة متميزة من الوعي الثقافي المتبادل لم يشهدها في تاريخة الطويل. وقد أسهمت وسائل الاتصال فائقة السرعة والثورة المعرفية في الوصول إلى هذه الحالة التي سمّيت بالعولمة الثقافية المعاصرة. كما أن الجديد في العولمة الحالية أن أمريكا تعمل على أمركة العالم، وتمارس صناعة ثقافة جذابة، مغرية، قادرة على منافسة كل الثقافات الأخرى، وتنتشر بسرعة هائلة؛ بسبب الطلب المتزايد على استيرادها في كل أنحاء العالم، إضافة إلى ما يدعمها من تفوق عسكري واقتصادي وسياسي، يدفع بهذه الثقافة ويروّج لها.[٣]

إن التخوف من العولمة نابع من أنها تهدد الشخصية الاسلامية والهوية المحلية؛ ذلك بأنَّ فقدان الفرد لهذه الشخصية الثقافية يفقد حياته معناها، وفقدان الأمة لهويتها الثقافية هو أشد ما يمكن أن يصيبها ويقضي على وجودها. وجميع الأمم تضع قوانين خاصة تقيّد بها بعض الحريات الهامة

(١) عبد الوهاب المسيري،"فقه التحيز"، منبر الشرق، السنة ٤، عدد١٨، شوال١٤١٥هـ/ مارس١٩٩٥، ص٤٩.

(٢) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط٥ (دمشق: دار الفكر ١٩٨٦م)، ص ١٢٣.

(٣) المعهد العالمي للفكر الاسلامي، مرجع سابق.

للأفراد من أجل حماية الهوية الثقافية التي تميّزها؛ لأن الهوية الثقافية ترتبط بما تمتلكه الأمة من مقومات توحّد كيانها، ورؤية خاصة للعالم تميّزها. غير أن المتفائلين يرون أن العولمة تمثل فرصاً جديدة لكل ثقافة كي تنافس الثقافات الأخرى في العالم في تقديم نفسها عبر الوسائل المتاحة على نطاق واسع[١].

ما هذا التخوف والتفاؤل، وأمام هذه المواقف المتباينة، فإن على الفكر الاسلامي أن يطرح تساؤلاته بموضوعية، وأن نتأمل في واقع ثقافتنا؛ ونسأل عن حقيقة هذه التحديات، وعن هويتنا التي صرنا نخاف عليها من كل وافد، مع ادعائنا بأن قيمنا عالمية وثقافتنا عالمية مستندة غلى الخطاب العالمي للقرآن.

ألا يكون الركون إلى المحلية الموهومة نوعا من الانكفاء على الذات؟ ألا يمكن أن تكون العولمة فرصة لنختبر مدى قوة ثقافتنا، ونصحح الصورة المشوهة عنا في العالم، وأن نسجل حضورنا في الساحة العالمية؟

إن على الفكر الاسلامي أن يدرك ان عصرنا هو "عصر التحول الإنساني الكبير، فهو العصر الذي يتحتم على الإنسانية فيه، وقد سبق لها أن اجتازت مع العهد الحجري الجديد المرحلة الأولى في تاريخها، بانتقالها إلى مستوى (الحضارات)، يتحتم عليها الآن أن تجتاز المرحلة الثانية التي تسمو بها إلى مستوى حضارة الرجل العالمي"[٢].

وهذا يجعل من الفكر الاسلامي يدرك أن العولمة بما تطرحه من تحديات فإنها صيرورة تاريخية جعلت الإنسانية تسير الآن لتصير حضارة المجتمع العالمي، بدل حضارة الوحدات التاريخية.

(١) المعد العالمي للفكر الاسلامي، مرجع سابق.

(٢) مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر ١٩٨١م)، ص ٢٣١.

وهي كما يقول بن نبي تجربة مفيدة لبناء الفكر الإسلامي، وتحقيق الوعي السنني، الذي ينسجم مع البعد الكوني لحركة التاريخ. وهي تجربة صادفت أعظم ما تصادفه عبقرية الإنسان من نجاح، وأخطر ما باءت به من إخفاق، وإدراك الأحداث من الوجهين كليهما، ضرورة ملحة للعالم الإسلامي في وقفته الحالية، إذ هو يحاول أن يفهم مشكلاته فهمًا واقعيًا، وأن يقوم أسباب نهضته كما يقوّم أسباب فوضاه تقويمًا موضوعيًا[١]. لنخرج من حالة "القابلية للاستعمار" ومن حالة الانبهار الذي دفع كثيرين من قيادات الأمة الإسلامية ونخبها وعلمائها، وأبنائها عموما، إلى الأخذ غير المتبصر عن هذه الحضارة، أو ما سماه مالك بن نبي "التكديس"[٢]، الذي يستورد ويراكم الخبرات والأشياء، ولكنه لا يصنع حضارة، أو يعيد نهوضها من جديد ؟!.

خاتمة:

إن الفكر الاسلامي في عصر العولمة هذا، أمامه فرص ليدرك أنه في عصر "نما فيه واقع المجتمعات المعاصرة وتمدد خارج إطار المرجعية الإسلامية"، وفُرضت على المسلم تحديات، متنوعة، "ولم يعد في وسع القياسات الفقهية الجزئية والتلفيقات الفكرية المرتجلة أن تحقق أمراً ذا بال"، وذلك للفارق النوعي بين مجتمعات الامس ومجتمعات اليوم. وأن هناك اختلاف نوعي "بين المجتمعات المعاصرة المعقدة والمجتمعات القديمة البسيطة، يستلزم إصلاحا جذريا نوعيا شاملا" كما يقول الدكتور طارق رمضان[٣].

ولهذا لا ينبغي أن ننظر إلى هذا الواقع على أنه قدر لا رادَّ له، ولا نهاية التاريخ؛ ذلك بأنَّ شعوراً متزايداً لدى كثير من الشعوب -حتى الحليفة للولايات

(١) بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص ١٢٢.

(٢) شروط النهضة، ص٤٠-٤٦.

(٣) بدران بن لحسن، الشهادة على الناس في عصر تزاحم القيم، جريدة العرب القطرية، ٢٠/ ٤/ ٢٠١٦.

المتحدة- بأن الازدواج المتزايد لقوة الثقافة وثقافة القوة، والتزايد المستمر للروح الامبراطورية والمغامرات العسكرية، وممارسة سياسات الغطرسة والاستعلاء، يدفع هذه الشعوب إلى إعادة حساباتها في مواجهة هذا اللون من هيمنة العولمة. وأن التاريخ القادم لن يكون رهن القدر الأمريكي، وأن دورة جديدة في القوى الفاعلة على ساحة العالم لا بد أن تبدأ، قد لا يكون في القريب العاجل، لكنها ستبدأ لا محالة، وعلينا أن نساهم فيها ويكون لنا فيها حضور فاعل.

هذا الدور الفاعل يكون من خلال الانطلاق من الرؤية الاسلامية للكون والحياة، والتفاعل بإيجابية مع الحاضر، تحقيقا للشهادة على الناس، بالحضور والانفتاح والمشاركة.

***

تحدي النموذج المعرفي الغربي والحاجة إلى رفع التحدي - ١

ليس بمقدور أحد - في ضوء المعطيات الراهنة - أن ينكر كون الأمة الإسلامية في العصر الراهن تعاني من حالة انهيار حضاري يعبر عن نفسه بصيغ شتى، ليس أقلها خطرا ما يلاحظه المؤرخ البريطاني "أرنولد توينبي" في دراسته للتاريخ بخصوص الحضارات الست المتبقية بعد غياب ما يزيد عن العشرين، وأن هذه الحضارات المتبقية - بما فيه الحضارة الإسلامية - تلفظ أنفاسها، وتدور في فلك الحضارة الغربية الغالبة، وهي معرضة في أية لحظة للتفكك والتلاشي في مدارات هذه الحضارة[١].

ومن الحقائق الأساسية التي تجابه الإنسان في عصرنا أن النموذج الحضاري الغربي أصبح يشغل مكانا مركزيا في وجدان معظم المفكرين والشعوب، وليس من المستغرب أن يحقق نموذج حضاري له مقدرات تعبوية وتنظيمية مرتفعة انتصارات باهرة، على المستويين المعنوي والمادي[٢]. ونحن نلاحظ كيف أن التعامل مع الحضارة الغربية الغالبة أخذ - منذ أخريات القرن الثامن عشر - صيغة الانبهار الذي دفع كثيرين من قيادات الأمة الإسلامية ونخبها وعلمائها، وأبنائها عموما، إلى الأخذ غير المتبصر عن هذه الحضارة، أو ما سماه مالك بن نبي "التكديس"[٣]، الذي يستورد ويراكم الخبرات والأشياء، ولكنه لا يصنع حضارة، أو يعيد نهوضها من جديد ؟!.

(١) عماد الدين خليل، تحديات النظام العالمي الجديد حال الحضارة الإسلامية.. موطن الانكسار
http://www.onislam.net/arabic/madarik/culture-ideas/91070-2003-08-06%2017-51-49.html?tmpl=component&print=1&layout=default&page=

(٢) عبد الوهاب المسيري، "فقه التحيز"، منبر الشرق، السنة٤، عدد١٨، شوال١٤١٥هـ/ مارس١٩٩٥، ص٤٩.

(٣) مالك بن نبي، شروط النهضة،

ومكمن الخطورة في هذا الأخذ أنه لم يميز بين الأشياء والأفكار. فإذا كان في الحالة الأولى يمارس عملا مشروعا، فإنه في الثانية يقتحم عقل الأمة وعقيدتها وثوابتها التصورية وخصائصها الأساسية بجملة من المفردات التي تلحق الدمار بمقومات الشخصية الإسلامية، وتقودها إلى الخروج من ساحة الاحتكاك الحضاري، وقد فقدت ذاتها وأصبحت - في نهاية الأمر - تابعا يدور في فلك الآخر.

وفي سياق هذه المقالة، فإن تركيزنا على التحدي الذي يطرحه النموذج أو النسق المعرفي الغربي، ذلك أن النسق المعرفي الغربي الذي يؤطر المعرفة ويثريها بمقولاته، والرؤية الغربية لله عز وجل وللكون والحياة، هي التي تسيطر على توجهات أغلبية شعوب الأرض الآن، وتحاصر ثمرات هذا المنهج وعي الإنسان وفكره وسلوكه ورغباته، حتى تكاد تأسر رؤية الإنسانية للوجود، فأصبحت الحضارة الغربية "قانون العصر" المهيمن.

وعندما تنظر إلى هيمنة النموذج المعرفي الوضعي العَلماني الغربي تظن لأول وهلة أنه أبلغ ما يمكن للعقل البشري أن يبلغه، ومبعث هذا الاعتقاد أن النموذج المذكور قد مكن لنفسه بترسانة من الوسائل التكنولوجية والتقنيات المتطورة التي استبدت بحياة الإنسان في شتى جوانبها، داخل بيته وخارجه؛ سيارة يمتطيها، وهاتف يحدد به المواعيد، وجهاز كمبيوتر يكتب فيه ما يشاء ويخط فيه سائر خطاباته ويتصل به ويقرب الأبعاد، فيظهر لك زيادة إلى ما سبق أن الغرب قد امتلك ناصية الحقيقة المطلقة التي لا يساورها شك ولا يعتريها نقص.

والعالم الإسلامي إذ أفاق من السيطرة العسكرية الغربية، يحاول أن يضيف إلى ذلك التحرر من الهيمنة الشاملة والكاسحة للحضارة الغربية بنموذجها المعرفي، لأنه يحتوي بعض العناصر المخالفة للرؤية الإسلامية للحياة، من استبطان الأسلوب العَلماني والوضعي والنسبي والمادي والتطوري، في تحليل الظواهر وقراءة التاريخ.

وبهيمنته، أتلف الغرب قداسة الوجود في النفوس والضمائر والثقافة، بسبب منشأ ثقافتها التي أطلقت عليها اسم العلمية، والتي أخضعت كل شيء وكل فكرة إلى مقاييس الكم منذ عهد ديكارت. ذلك أن المادية المتمركزة، والكمية التي أشيع عنها أنها هي العلم وهي المنهج العلمي الصحيح، صارت معيارا لقياس مدى صحة أو علمية أي فكرة أو شيء في هذا الوجود.

فالتطور الهائل الذي عرفته العلوم الطبيعية والتكنولوجية وحتى الإنسانية، قائم على الفكر المادي، والفلسفة المادية التي طغت على الحضارة المعاصرة سواء في أصولها النظرية أو في تطبيقاتها الاجتماعية والسياسية. وصار المجال العقائدي وفق النظرة المادية الوضعية من قبيل الشأن الشخصي الذي لا يخضع لمنطق البرهان الاستدلالي العقلي، ولا يمكن اعتباره علما حسب هذه النظرة الوضعانية.

فالمنهج المعرفي الغربي مادي في أساسه، متمركز على المادة، وينكر الغيب وما يتصل به من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر. وترفض الحضارة الغربية وفق منهجها العلمي أي مصدر آخر للمعرفة خارج عن نطاق الفحص الحسي المادي، الخاضع للتجربة المخبرية أو المشاهدة.

وبما أنها مادية فإنها تُخضع كل شيء لقوانين المادة من تحول وتغير، ولا يوجد هناك ما يسمى "ثابت" مثل القيم والأخلاق، لأنها ليست أشياء يمكن تقديرها بالكم، فالصدق بما أنه لا يمكن وزنه ولا قياسه بالكمية أو بالأرقام فهو -في المفهوم الغربي- شيء مفتعل وغير موجود، ولا ثمرة من ورائه.

لقد تكونت في بلدان الغرب من جراء الفصل بين العلم والإيمان نظريات العلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون والآداب، مبنية على رؤية ووجهات نظر مادية للإنسان ونفسيته، ومحاكمة طبيعته وتصرفاته وميوله، وتقويمها من خلال مقاييس المادة وحدها.

كما أن هذه العلوم الإنسانية في طابعها العلماني الحديث وزخم الاكتشافات الخارقة والمكتسبات الهائلة التي أحرزت عليها، أدت من حيث أبعادها الأخلاقية والروحية والإنسانية إلى متاهات عقائدية، إذ إنها جردت الإنسان من مكوناته الأساسية التي ترتفع بها فطرته البشرية، وتعتدل بها نفسيته، وتتزكى بها عقليته ويتسامى بها ضميره وروحه.

وزاد الخطب حين أحكم الغرب قبضته على مقاليد العالم في أواخر القرن التاسع عشر إلى الثلث الثاني من القرن العشرين، إذ عمل على تهميش الثقافات القائمة ببلدان العالم التي استعمرها وأبادها، معتبرا ثقافته المحور والمقياس لكل فكر ومعرفة، وأساسا لكل خطاب.

***

تحدي النموذج المعرفي الغربي والحاجة إلى رفع التحدي - ٢

أمام هشاشة الثقافات المحلية التي بعدت عن ثوابتها الأصلية، ومع الغلبة التي حققتها الثقافة الغازية، بدأ الاجتياح والغزو الثقافي، وبدأت الحصون الفكرية والثقافية للأمم الأخرى تتهاوى أمامه. وعلى الرغم من أن الأمة الإسلامية لم تستسلم بمجموعها للثقافة الغازية، إذ التجأت الفئات المقاومة منها إلى ما بقي محفوظا من تاريخها الثقافي والحضاري، تحتمي به من الذوبان، فإن ذلك اللجوء لم يكن في مستوى التمكين من المقاومة الفاعلة، وإن حالَ دون الذوبان الشامل.

وكانت النتيجة عدم تمكن الأمة من عملية النهوض والبناء الحضاري، نظراً لهشاشة الفهم للمورث المحتمى به من جهة، والعجز عن التعامل مع الثقافة الوافدة، أو صد خطابها الحامل للتحدي من جهة أخرى.

كما أن الأمر أدى إلى سقوط فئات من الأمة في الاستلاب الثقافي والشغف بقوة الغالب، وتشرب ثقافته والانسياق وراء خطابه الفكري والمعرفي، بمحاولة تقليده في كل شيء، والانبهار به إلى درجة المسخ في شكل أبواق تردد محتواه ومضمونه وتروجه، ظنا من تلك الفئات أن ذلك قد يمكن الأمة من اجتياز حاجز التخلف، واللحاق بركب الحضارة، ويعوض عن مركب النقص.

إلا أن أصحاب هذا التوجه لم يجنوا إلا الحصاد المرّ، المتمثل في فقدان الهوية واضطراب الرؤية وتفكك الشخصية الإسلامية. لهذا فإننا في أمس الحاجة إلى وعي هذا التحدي الحضاري الغربي عموما، والتحدي المعرفي بوجه خاص.

أهمية الوعي بالتحدي

وإن أول ما ينبغي القيام به هو وعي التحدي، ويكون ذلك بخطوتين منهجيتين؛ وعي الذات الإسلامية، والوعي بخارطة الواقع الحضاري.

١. الوعي بالذات الإسلامية:

وهو أمر ضروري، ومهم ودونه لا يمكن أن نحل مشكلاتنا، ولا أن نبلِّغ الهداية إلى الآخرين، ورسالتنا في عصر العولمة تتحدد بمدى فهمنا وتمثلنا للقيم الإسلامية، ولا يمكن أن نحقق التغيير المطلوب إذا لم نرتفع إلى مستوى الإسلام.

والوعي بالذات الإسلامية يعني تحقيق وتمثل المثل الإسلامية، وأن يعيشها الفرد المسلم والمجموع، وأن تصبح صبغة لمفردات الحياة اليومية للمسلم، وليس فقط التلفظ بعبارات التوحيد والتوكل والرضا والإتقان للأعمال، وغيرها.

فالتوحيد الذي هو جوهر الذات الإسلامية، ينبغي أن يحياه المسلم في أبعاده الاجتماعية والنفسية والعلمية، فعلى المستوى النفسي يربط المسلم مصيره وأمله وتوجهاته وأهدافه بالله عز وجل، فيخلص التوجه إلى الله، وبهذا يحقق وحدة شخصيته ووحدة توجهه، ويحمي نفسه من الفصام وأنواع التمزق النفسي والروحي. وعلى المستوى الاجتماعي تنتفي مظاهر الصراع والتناقض ويكون توجه المجتمع نحو التكامل والتآلف، فتحكمه مبادئ الاستخلاف والإعمار والتسخير والعبودية لله عز وجل، وعلى المستوى المعرفي يتحقق لدى المسلم وحدة الحقيقة، وانسجام سنن الله في الكتاب وفي الأنفس والآفاق والتاريخ، فلا يحدث عنده تناقض بين الوحي والكون، ولا بين الوحي والعلم؛ لأن الوحي هدي صادق، والعلم توجه صادق بحثا عن الحقيقة.

ثم إن مواجهة أي غزو فكري تتطلب هذا الوعي بالذات، حتى يميز المسلم بين تفوق ذاته الإسلامية، وقصور مصدر هذا الغزو، لتحقيق الحصانة

مـن الغـزو، والقضـاء عـلى عنـصر القابليـة للاسـتضعاف والغـزو.

٢. الوعي بخارطة الواقع الحضاري:

إن الخريطـة الحضاريـة للمجتمـع الإنسـاني الراهـن تتشـكل مـن حضـارات، وكل حضـارة تعـبر عـن نمـوذج حيـاتي متميـز عـن غـيره، وفهـم الحضـارة مقـرون بوعي مذهبيتهـا ونظامهـا الفكـري ومشروعهـا الاجتماعـي ومنهجيتهـا المعرفيـة التطبيقيـة.

كـما أنـه مـن الواضـح أن الضمـير الإنسـاني في عصرنـا لم يعـد يتكـون في إطـار الوطـن والإقليـم، وهـذا مـع اعترافنـا بـأن أرض المولـد التـي يعيـش عليهـا النـاس تمدهـم بالبواعـث الحقيقيـة لمواقفهـم العميقـة، غـير أن الضمـير الإنسـاني في القـرن العشريـن إنـما يتكـون عـلى ضـوء الحـوادث العالميـة التـي لا يسـتطيع أن يتخلـص مـن تبعاتهـا، فـإن مصـير أي جماعـة إنسـانية يتحـدد جـزء منـه خـارج حدودهـا الجغرافيـة. فالثقافـة أصبحـت تتحـدد أخلاقيـا وتاريخيـا داخـل تخطيـط عالمـي.

خاصـة مـع التطـور الـذي دفعـت بـه موجـات الحداثـة ومـا بعـد الحداثـة وصولا إلى العولمـة، ومـا صاحـب ذلـك مـن تطـورات وأحـداث عالميـة أحدثـت تأثـيرا في وعـي الإنسـان واهتماماتـه ولم يعـد وعيـه يتشـكل بشـكل انعـزالي عـن المؤثـرات الخارجيـة، ومـن هنـا فالوعـي بهـا، ووضعهـا في الحسـبان يمكـن مـن التفاعـل الإيجـابي معهـا.

يقـول مالـك بـن نبـي في هـذا الإطار: "فالمثقـف المسـلم نفسـه ملـزم بـأن ينظـر إلى الأشـياء مـن زاويتهـا الإنسـانية الرحبـة، حتـى يـدرك دوره الخـاص ودور ثقافتـه في هـذا الإطـار العالمـي".

ولم يعـد مـن المستسـاغ علميـا وواقعيـا الغفلـة عـما يجـري مـن حولنـا في القريـة العالميـة، وإلا فـإن وعينـا سـيصيبه الضمـور، ونجهـل المعـالم التـي تتحـرك عـلى منحاهـا أحـداث التاريـخ، فالمسـتوى الشـخصي للمسـلم حتـى ولـو نـما نموا نسـبيا،

يمكـن أن يبـدو في حالـة تضـاؤل، بقـدر مـا ينمـو تطـور الآخريـن بسرعـة أكثـر. والواقـع أن الوعـي الاجتماعـي الـذي كان يتكـون منـذ حـين في دائـرة محـدودة أمـام منظـر محـدد عمومـا، بنطـاق بـلاد معينـة هـي الوطـن، قـد أصبـح يتكـون اليـوم في إطـار أكثـر امتـدادا بدرجـة لا تضـارع، وفي منظـر أكثـر انفسـاحا.

ولهـذا فالاهتـمام بالآخريـن يفرضـه المنطـق الإنسـاني، وتحتمـه التداخـلات بـين الشـعوب والأمـم، وحيـاة الشـعوب التـي تواجـه في عصرنـا مشـكلات خاصـة بكيانهـا، ومشـكلات مشـتركة، إنهـا تعـبر عـن امتـداد كيانهـا في عـالم الآخريـن، وتأثـير العامـل التكنولوجـي الـذي صـاغ بالنسـبة لـكل شـعب ضرورات مـن نـوع خـاص تفـرض عـلى حياتـه التزامـات ومسـؤوليات جديـدة في نطـاق أوسـع مـن نطاقـه التاريخـي الجغـرافي المعتـاد.

هـذه الالتزامـات والمسـؤوليات المتجـاوزة للحـدود التقليديـة تكـون مقياسـا مبـاشرا لدرجـة تحـضر هـذا الوسـط حيـث لا يحيـا الفـرد مـع أهلـه ومواطنيـه فحسـب ولكـن مـع عـدد أكـبر مـن النـاس، مـن مختلـف الأطـر والانتـماءات الحضاريـة والثقافيـة.

***

من أجل حِوار حضارات لصالح البشريّة

منذ نهاية الحرب العالميّة الثانيّة والإنسانيّة تتجه إلى وحدة المصير، وتشترك في القضايا الكبرى، وترتبط في علاقاتها بشكل يوحّد من همها وتطلعاتها، كما يوحّد شعورها بالمخاطر المحدقة بالإنسانيّة، وأهميّة العمل المشترك، والعيش أو التعايش المشترك بدل منطق الصّراع الذي قد يؤدّي إلى النهاية المأساويّة للجميع.

وقد تعمق هذا الوعي بشكل أكبر -على المستوى الفكريّ- عندما بدأت الكتابات تتوالى في الغرب خاصة عن طبيعة العلاقات الدوليّة التي ستحكم العالم، وخاصة بعد انهيار المعسكر الشيوعيّ، وخلوّ الساحة الدوليّة لهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، ووقع العالم تحت هيمنة "وحيد القرن" وزوال الثنائيّة.

ثم إنّه بعد صدور كتابَي كلٍّ من فوكوياما "نهاية التاريخ" وهنتنجتون "صدام الحضارات" حيث بشّر فوكوياما بسيادة قيم الديمقراطيّة الليبراليّة وهيمنتها على العالم وتحوّلها إلى المصير الوحيد للإنسانيّة التي يجب أنْ تقبله، بينما تنبأ هنتنجتون بأن الصّراع في المستقبل لن يكون بين الدول الوطنيّة، ولا بين المحاور السياسيّة الأيديولوجيّة، بل بين المحاور الحضاريّة. أي بين الحضارات التي تشكل -فينظره- "الإطار الثقافيّ الأوسع للمجتمعات"، وبهذا فإنّ خطوط التماس الحضاريّ ستشهد - وقد شهد تفعلاً - صداماً دموياً مثلما حدث في البوسنة وفي الصومال وفي كوسوفا وفي مواقع أخرى ويحدث الآن في فلسطين والعراق.

ولذلك سارعت الأمم المتحدة وبعض الدول التي لا ترغب في هذا الصّدام إلى تبني مقولة "حِوار الحضارات"، وأعلنت الأمم المتحدة سنة ٢٠٠٢ سنة لحوار الحضارات، ثم شاع أدب الحوار بين الحضارات في مختلف الدوائر

الفكريّة والسياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة، ومما زاد الأمر أهميّة تعاظُم ظاهرة العولمة واقترانها بمرحلة تاريخيّة من حياة الإنسانيّة اتسمت بمحاولة إزالة كل الحواجز في وجه القوة الأمريكيّة، مستعملةً في ذلك كلّ الأدوات السلميّة والحربيّة من أجل فرض الهيمنة على العالم وتوجيهه وفق تطلعات إدارة البيت الأبيض، وبارونات المال والأعمال، والنخبة المتواجدة في مراكز القرار والأبحاث والدراسات الاستراتيجيّة في الغرب عموماً وأمريكا بوجه خاص.

منطقان متعاكسان يحكمان حِوار الحضارات:

وبناء على ما سبق فقد كثر الحديث عن حِوار الحضارات والثقافات والأديان، مما يدل على الوعي بالصعوبات التي يواجهها الجميع؛ سواء في ذلك العالم المتطور أو العالم المتخلف.

ومن جهة أخرى فإنّ كثرة الحديث عن موضوع الحِوار بين الحضارات والثقافات يدل على الاختلالات التي تعاني منها منظومة العلاقات السائدة بين الأمم، وأنها لم تعد عادلة ونافعة، بل ولم تعد قابلة للتنفيذ والممارسة بشكلي حقّق مصالح الإنسانيّة في الأمن والسلام والتقدم، وخاصة الاختلالات التي تعاني منها منظومة القيم والثقافة الغربيّة والأمريكيّة بوجه أخص، وذلك بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

وفي هذا السياق أرى أنّ سبب تلك الاختلالات راجع في جوهره إلى منطقين متعاكسين في الاتجاه وفي المنطلق، ونظراً لهذا التعاكس بين المنطقين فإنّ الإنسانيّة مهددة في مصيرها إمّا باستمرارية حالة الاحتقان، وإمّا بهيمنة الغطرسة الأمريكيّة التي ترى نفسها هي الحضارة القدوة وغيرها تخلّف وإرهاب. أما المنطقين المتعاكسين فهما: منطق التاريخ من جهة، والقاضي باتجاه البشريّة إلى وحدة المصير بفعل اطّراد تقدم البشريّة، وترابط مصالحها بعضها ببعض، وبفعل التقدم التكنولوجيّ الهائل الذي أدّى إلى تقارب المكان والزمان.

ومن جهة أخرى هناك منطق الهيمنة الغربيّة على العالم، ومحاولة فرض نمط عنصريّ محدود الأفق، قاصر في رؤيته ومداه، متحيّز في قيمه، ماديّ في طموحه وتوجّهه، وصدامِيّ في تعامله. محاولة هذا النموذج بفعل ما يملكه من غلبة حضاريّة مؤقتة أنْ يفرض ثقافته ومعياره على العالم، مما يولّد رفضاً من بقية الكيانات الحضاريّة لمثل هذه الغطرسة وفرض القيم والمعايير

والمنطقان اللذان سبق ذكرهما يطرحان إشكالاً غاية في الأهميّة، وهو بدوره يقوم على قضيتين:

أولا ـ إنّ وحدة المصير الإنسانيّ تفرض على كل حضارات الأمم والشعوب والدول التزاماً جماعياً بمتطلبات عالميّة أو كونيّة؛ لأنّ المصير صار مشتركاً، والمصالح صارت متداخلة، والعالم صار قرية صغيرة يؤثّر أدنى حدث فيه في كل أركان المعمورة، ويمسّ كل الناس.

ثانياً ـ إنّ هناك تميزاً واختلافاً في القيم والمعايير والثقافات بين مختلف الشعوب، وبالتالي ينشأ حقّ أساسيّ من حقوق الأمم والشعوب والكيانات الحضاريّة في التميز والاختلاف عن الثقافة الغربيّة المهيمنة وبالتالي الاحتراز نظرياً وعملياً من الذوبان في ثقافة الغرب المتغطرسة.

أبعاد الإشكاليّة:

ولنا أنْ ننظر إلى مكمن الإشكال الذي ذكرناه، ونتساءل عن كيفية حلّه من أجل صالح البشريّة؛ فهل نعتبر الحضارة الغربيّة المعاصرة هي أرقى ما توصلت إليه الحضارة الإنسانيّة، وبالتالي فهي تمثل الحضارة القدوة وعلينا القبول بها نموذجاً مهيمناً غالباً ينبغي اتباعه والاقتداء به، وترك كل الخصوصيّات الثقافيّة والحضاريّة الخاصّة بنا؟

أم أنّ الحضارة الآن هي نتاج تراكميّ تاريخيّ لشعوب وحضارات متعدّدة،

وبالتالي فإنّها نتاج عوامل متعدّدة، وليست ذات خصوصيات غربيّة أو أمريكيّة أو إنتاج أمّة معيّنة، وبهذا علينا أنْ نعتبرها هي الحضارة، ولا ينبغي الخروج عنها؟

أم أنّ مفهوم الحضارة العالميّة مفهوم فَضْفاض مهلهل مهتزّ، استعمله الغالب ليسيطر على المغلوب، ودعا إليها لقويّ ليسلب من الضعيف آخر أدوات المقاومة لنموذج مشوّه وقاصر ومحدود الأفق، وبذلك ينبغي الاحتفاظ بالخصوصيّة الحضاريّة والثقافيّة، وترسيخ مبدأ التميّز والاختلاف؟

إنّ تأمّل الخيارات الثلاثة المطروحة أمامنا تمثل - في الواقع - أهمّ المقاربات الموجودة في الأوساط السياسيّة والثقافيّة والعلميّة، وهي المقاربات المتداولة بين الباحثين والمهتمين بالشأن الحضاريّ.

ويمكن القول: إنّ هذه المقاربات تحمل كلّ منها مبرّراتها كما تحمل جوانبها السلبيّة، وهذا ما يدفع إلى الدّعوة إلى العمل على صياغة مقاربة أكثر شموليّة وإحاطة بالموضوع، وذلك من خلال استراتيجيّة ومنهجيّة تتوجه إلى أبعاد ثلاثة:

أولاً: فهم النّسق والسياق التاريخيّ الذي نشأت فيه الحضارة المعاصرة، وهو لاشكّ نسق الحداثة الغربيّة بما وفر للحضارة الغربيّة المعاصرة من إطار فلسفيّ ومرجعيّة فكريّة ومنظومة قيميّة تطوّرت في كنفها الحضارة وصاغت مقولاتها في ما يخص علاقتها بالحضارات والثقافات غير الغربيّة.

ثانياً: محاولة فهم العلاقة بين الدينيّ والدنيويّ، بين المطلق والزماني، بين منظومة القيم الدينيّة والقيم العلمانيّة التي صاغتها الحضارة الغربيّة، وأثر ذلك على تشكل المؤسّسات والجماعات السياسيّة والاجتماعية والثقافيّة والمهنيّة وغيرها في الغرب. أي فهم مفهوم وموقع الدين في صياغة الحضارة الغربيّة المعاصرة.

وثالثاً: فهم التطوّر التكنولوجيّ الهائل الذي ميّز الحضارة الغربيّة المعاصرة، والأبعاد التي أضفاها على منظومة القيم والمعايير، وما أدّى إليه من تغيّر النظرة إلى الإنسان ومكانته وماهيّته ووجوده. أو ما عبّر عنه ابن نبي بِـ"تقدّم العلم وتخلّف الضّمير".

وفي الختام نقول: إنّه بهذه الاستراتيجيّة يمكن أنْ نحيط بالظاهرة وأنْ نستوعبها فهماً، وبعد ذلك يمكن أنْ نحلّ الإشكالات المطروحة، ونستطيع أنْ نتحدث عن الحضارة العالميّة أو الكونيّة.

***

ما المنهج في فكر الحداثة؟

هـذا سـؤال يحتـاج إلى تفكيـك وتركيـب حتـى يمكـن الإجابـة عنـه. تفكيـك، أو بعبـارة أخـرى تحليـل إلى عنـاصر أوّليـة، لنفهـم المنهـج، والحداثـة، وفكـر الحداثـة. ثـم تركيـب لهـذه العنـاصر، حتـى نسـتطيع الإجابـة عنـه، باعتبـاره يعالـج قضيـة مكتملـة الصـورة في أذهاننـا.

ولهـذا، نـرى أن نبـدأ الحديـث عـن الحداثـة باعتبارهـا مرحلـة تاريخيـة ارتبطـت بالتطـور الحضـاري الغـربي، كـما ارتبطـت بتطـور التاريـخ العالمـي في صلتـه بالغـرب وبالحضـارة الغربيـة.

ثـم بعـد ذلـك نتحـدث عـن جـذور الحداثـة، أو الأسـباب المبـاشرة التـي أدت إلى الحداثـة، وهـي كـما نعتقـد؛ الإصـلاح الدينـي والسـياسي، وحركـة النهضـة الصناعيـة، وتفجـر المعرفـة وظهـور التكنولوجيـا. هـذه العوامـل الثلاثـة التـي أحدثـت انقلابـاً في علاقـة الأوروبي بالعـالم والكـون والحيـاة، كـما غـيّرت نظرتـه الكونيـة كـما يقـول الفيلسـوف الألمـاني ألـبرت اشـفيتزر.

وهـذا يقـود إلى تنـاول الحداثـة باعتبارهـا موقفـا فكريـاً، أي الحديـث عـن فكـر الحداثـة مـن خـلال النظـر إلى الحركـة الفكريـة التـي واكبـت ظاهـرة الحداثـة؛ مـن ثـورة عـلى نمـط التفسـير الكنسـي للعـالم والحيـاة والتاريـخ، والنسـق الأرسـطي للتفكـير القائـم عـلى الاسـتنباط والـدوران داخـل محيـط المبـادئ الفكريـة المجـرّدة، والاعتـماد عـلى الاسـتنتاجات العقليـة، إلى نظـرة وضعيّـة؛ تؤمـن بإمكانيـة المعرفـة مـن خـلال الحـواس، واعتـماداً عـلى الطبيعـة، واسـتبعاداً للميتافيزيقـا واللاهـوت الغيبـي المسـيحي.

وهـذا بـدوره يـؤدي بنـا إلى الإمسـاك بخيـوط المنهـج الـذي قـام عليـه هـذا الفكـر؛ فكـر الحداثـة، وإلى الحديـث عـن أهـم مفـردات بـل قواعـد هـذا المنهـج، التـي هـي في تصورنـا الفصـل بـين الفكـر الكنسي الأرسـطي الجامـد وبـين الفكـر الوضعـي العمـلي الواقعـي، وجعـل الإنسـان مصـدر القيـم ومركزهـا؛ اي مرجعيّـة إنسـانية (هيومانيـة كـما يقـول المسـيري) كامنـة غـير متعاليـة عـلى الطبيعـة.

وكـذا توسّـع مسـار العلمنـة واسـتبعاد المقـدس مـن أن يكـون فاعـلاً في التاريـخ، وهـذا بـدوره يقـود إلى إفـراغ مفاهيـم مثـل: الله، والغيـب، والأخـلاق مـن معانيهـا، ومـن فاعليتهـا العلميـة والاجتماعيـة.

لنصـل في الأخـير إلى مـأزق هـذا المنهـج، ومآلاتـه الرهيبـة عـلى الفكـر والحضـارة والتاريـخ الإنسـاني، بـل وخطورتـه عـلى الإنسـان في أخـص خصائصـه؛ وهـي إنسـانية الإنسـان وكرامتـه.

وإذا جئنـا إلى العنـاصر التـي تركـب سـؤالنا عـن المنهـج في فكـر الحداثـة، فـإن الحداثـة في المعنـى اللغـوي تـأتي مـن الحديـث ضـد القديـم، ولهـذا فنحـن أمـام ثلاثة مصطلحـات مترابطـة تشـكل مفهومـا واحـداً في مجموعهـا، هـذه المصطلحـات هـي: الحديـث والحداثـة والتحديـث.

فـالأول يعـبّر عـن وصـف لـشيء يتصـف بأنـه حديـث ضـد قديـم، أمـا الثـاني فيعـبّر عـن حالـة أو ظاهـرة، أمـا الثالـث فيعـبر عـن عمليـة قصديـة تبتغـي القيـام بتحـول مـن قديـم إلى حديـث عـبر مرحلـة زمنيـة وتاريخيـة هـي الحداثـة.

إذن هنـاك مرحلـة تاريخيـة شـهدت ولا تـزال تشـهد عمليـة تحـول مـن القديـم إلى الجديـد (الحديـث) شـاملة لـكل الأبعـاد الاجتماعيـة والثقافيـة والعلميـة وغيرها. وبعبـارة أخـرى فهـي مرحلـة تحـول ذات أبعـاد متعـددة.

وإذا تعلـق الأمـر بالحداثـة باعتبارهـا ظاهـرة غربيـة صاحبـت التطـور الحضـاري الغـربي، فإننـا نقـول بصددهـا: إنهـا تلـك التحـولات ذات الأبعـاد المتعـددة التـي

حدثت في المجتمعات الغربية منذ عصر النور والثورة الصناعية والإصلاح الديني إلى بدايات القرن العشرين الميلادي، عبر مسار معقد، وتراكم متنوع، دام عدة قرون.

أما فكر الحداثة، فهو ذلك الفكر الذي مهّد لهذا التحول الحضاري الغربي أو صاحبه، باعتباره (أي الفكر) عملية تعبير عن الظاهرة، وصياغة تجريدية لها ولتجاربها ومقولاتها وإنتاجاتها.

أما المنهج في الحداثة، فهو التصورات والمفاهيم والمقولات التي على أساسها بُني هذا الفكر، وعلى أساسها تمت الصياغات النظرية للحداثة.

الحداثة وأوجهها المتعددة

الحداثة موقف عقلي، يتمثل في عدم الرضا بالطرق التقليدية للحياة، والتركيز على استغلال الموارد الطبيعية مستخدمة في ذلك المعرفة والتقنية الحديثة، والتغير الاجتماعي أحد أهم علاماتها، كما أن النمو الاقتصادي أكبر نجاحاتها، وهي تمس الحياة الانسانية في كل جوانبها تقريباً، ولذلك فيمكن القول: إنها ذات أبعاد أو أوجه متعددة.

ومن الصعوبة بمكان إعطاء تعريف محدّد للحداثة، أو تجسيدها في نموذج واحد؛ فالاقتصاديون يركزون اهتمامهم على النمو الاقتصادي، وذلك من خلال ربطها بالتقنية والتصنيع اللذين أدّيا إلى نشوء الرأسمالية والاشتراكية في العالم الغربي. بينما علماء الاجتماع يقدمون لنا عدة تعاريف ونماذج للظاهرة، ويركزون اهتمامهم على ما لحق بنية المجتمع من تغيير، أما علماء السياسة فيركّزون على جانب الأنظمة السياسية وتوازنات السلطة وكيفية تشكيل الحكومات وإدارتها للصراع بين طبقات المجتمع، ومن هذه الزاوية فإن الحداثة تنطبع فيما حدث من تطورات في بنية الديمقراطيات الغربية.

بينما الإعلاميون يرون أن الحداثة تتجلى فيما طرأ على وسائل وطرق وأنواع الاتصال من تطوّر وتغيّر وتعدّد وكثرة ومركزية. وبالتالي ما يحدث في المجتمع من تطوّر في مستوى العلاقات بين مكونات المجتمع وطرق التواصل فيما بينها.

وإذا تأملنا هذه التحدّيات المختلفة في ظاهرها، نجد أن الرابط بينها هو التقنية، أي أن الحداثة وسيلتها الأساس هي التقنية، وما لها من عوامل وآثار اجتماعية وثقافية.

ففي الجانب الاقتصادي حولت التقنية (التكنولوجيا) العملية الاقتصادية من المفاهيم البدائية البسيطة إلى ثورة في المعاملات المعقّدة والمتشابكة، وهذا بدوره ارتبط وأنتج نظم الرأسماليّة والاشتراكيّة والشيوعيّة وغيرها، وهي كلها لا تعدو أن تكون إفرازاً طبيعياً للتقدم التكنولوجي.

هذه المظاهر المادية للحداثة، لا ينبغي أن تحجب عنا حقيقة أن الحداثة لها موقف فكري وثقافي، أو كما سبق، موقف عقلي، هذا الموقف أو المحتوى الثقافي، يتمثل في التركيز على التعامل العلمي (Scientific) مع الواقع، والمقصود منه الخضوع للتفسير الوضعي للحياة بعيداً عن أي لاهوت متعالٍ أو غيب. وهو ما يعني أن الحداثة في جوهرها الثقافي والفكري والعقلي موقف مادي (Materialistic) منفصل عن أي قيم متعالية ليست من صنع الواقع الاجتماعي أو الطبيعي.

وهذه المظاهر أو الأوجه المتعددة للظاهرة ترجع إلى جذر واحد يربطها، ويشكل من خلالها الحداثة كسيرورة تاريخية للمجتمع الغربي. غير أن الأمر لا يتوقف هنا، فعلينا أن نُفَصّل القول في المنهج الذي سارت عليه الحداثة، قصداً أو عن غير قصد.

المنهج؛ الرؤية والمفاهيم والتطبيقات:

الحديث عن المنهج في الحداثة يقتضي منّا تفصيل الكلام عن الرّؤية الكونيّة التي شكّلت هذا المنهج، ثم أهم المفاهيم التي انتجتها أو قامت عليها الحداثة، ثم بعض التطبيقات لهذا المنهج والمتمثلة في المظاهر التي يمكن أن تنطبع فيها الحداثة، وكذلك القطاعات التي تشملها.

فيما يتعلق بالرؤية الكونية، فإنها بدأت تتشكل منذ بدايات القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك من خلال ثلاثة تيارات مهمة في التاريخ الحضاري الغربي؛ وهي حركة الإصلاح الديني (البروتستانتي خاصة)، والعقلانية أو الفلسفة العقلانية الحديثة، وكذلك التيار الإنساني (humanism). حيث عملت الاتجاهات الثلاثة متضافرة معاً وظيفياً ومتعاقباً زمانياً ومتكاملة على بناء رؤية كونية حديثة للعالم، والتخلص من الرؤية القائمة على المنظور الكنسي الأرسطي التقليدي (Ecclesiastic).

وإذا كانت البروتستانتية حررت المسيحي الغربي من سلطة الكنيسة والباباوات وانفرادهم بتفسير النصّ المسيحي الديني المقدس، والهيمنة على العقل والمعرفة، فإن الحركة الإنسانية عملت على التركيز على أن الإنسان الفرد هو المرجع في كل شيء؛ سواء في ذلك القيم أو المعايير أو الحقيقة في هذا العالم.

ومن جهتها عملت الفلسفة العقلانية على التأسيس للتفسير العقلي لحركة التاريخ والحضارة، وعلى إيجاد معاني عقلانية لكل المفاهيم المرتبطة بالإنسان في هذا الكون، فشكّلت العقلانية ابتداءً من كوبرنيكوس وكبلر وغاليليو ثم ديكارت وسبنسر واسبينوزا ولوك وهيوم وغيرهم من التجريبيين أيضا، هذه العقلانية شكّلت نظرة للكون قائمة على استبعاد المقدس عن أن يساهم في صناعة التاريخ، كما أنها رسّخت مفهوم المادة في مقابل الروح، أو انفصال الأخروي عن الدنيوي، خاصة العقلانية الديكارتيّة التي مهّدت للعلمانية على

مستوى التفكير، لتنطبع في الواقع في علمانية روسو والثورة الفرنسية، التي حصرت المقدس إلى حساب توسيع الزمني في هذه الحياة.

هذه التيارات الثلاثة، إضافة إلى اتجاهات البحث في الفلك والبيولوجيا والفيزياء وعلوم الكيمياء والعضويات، صاغت مع "أوغست كونت" ما يسمى "بالوضعية" باعتبارها ليست اتجاهاً فلسفياً فحسب، بل رؤية كونية قائمة على تنميط الإنسان وعقله وتجربته مرجعاً للحقيقة ومصدراً للتفسير، ومن الطبيعة المجال الأوحد للفعل التاريخي، الذي ليس له امتداد آخر (غيباً كان أو ميتافيزيقا) متعالٍ عن المادة.

هذه هي الرؤية المركزية لمنهج الحداثة، الوضعية والعلمانية رؤية للكون والتاريخ والإنسان، ووفق هذه الرؤية وما حدث فيها من تعديلات عبر الزمن، تطوّرت الحداثة، ونضجت لديها مجموعة من المفاهيم تميز هذه المرحلة عن مرحلة ما قبل الحداثة (أي مرحلة القرون الوسطى)، ولعل من أهم هذه المفاهيم؛

مفهوم العلم (Science): حيث أعطى له محتوى وضعياً، وصار العلم هو ما أنتجه العقل البشري من خلال تعامله مع الواقع؛ طبيعيا كان أو اجتماعياً، إضافة إلى المعرفة الرياضية واللغوية، ولا شيء خارج الطبيعة واللغة والرياضيات.

وعليه تم استبعاد كل ما له صلة بالغيب من مفهوم العلم، ولهذا صار الدين خارجاً من مفهوم العلم، بل لا صلة للدين بالعلم، كما أن قضايا الدين لا يمكن إقامة الدليل عليها، لأنها ذات طبيعة فوق تاريخية، أو ما وراء الطبيعية، والعلم نطاقه العقل والتجربة والواقع. فصار الدين يشكل في عُرف الحداثة حيّزاً ضيّقاً ضمن نوع من أنواع الأسطورة، وإن سمح الأمر -كما يقول أركون أحد فلاسفة الحداثة الغربية- فإن الدين ذو بنية أسطورية متعالية.

استبعاد المقدس، أو علمانية الحياة (Secularism) : وهو مفهوم مرتبط بالنظرة الكونية التي شكلت الحداثة، فلا دخل للدين في صناعة التاريخ، وإن أمكن إعطاؤه دوراً فهو دور مشارك وليس مركزيا، وذلك من خلال الدور الاجتماعي للقيم الدينية، والتي يقوم فيها الدين، أو المقدس، بأداء دور لصالح الزمني أو الدنيوي، أما أن يهيمن الدين على التاريخ أو يوجهه أو يصوغ الحياة، فهذه نظرة كنسية تم القضاء عليها، وتم حصر الدين أو المقدس في أداء دور ثانوي تقتضيه الضرورة العقلية المنطقية كما هو شأن "ديكارت" و"كانت"، أو تقتضيه الضرورة الاجتماعية كما هو شأن "دوركايم". أي أن دور الدين محدد بالضرورة، وبقدر ضئيل، وإن لم يُزل تماماً فإن تهميشه قد تمَّ. وهذا بدوره أعطى مكانا لمفهوم آخر هو المادية.

والمادية (Materialism)، وإن كانت تشكل نظرة كونية ورؤية كلية للحياة من خلال التيارات الثلاثة السابقة الذكر، فإنه يشكل مفهوماً مركزياً في تراث الحداثة المفهومي والفكري، فاعتباراً من مفهوم العلمنة والحياة، فإن المادة هي ذات الأولوية في صناعة وتوجيه حركة التاريخ. ولهذا نجد مفهوم الكم قد أُعطي أولوية كاملة على حساب مفهوم الكيف، كما أن معيار الكم صار هو الفيصل في قياس التقدم والتخلف، والقوة والضعف، والفاعلية وعدمها. أما المفاهيم الروحية مثل الله، الحق والخير والدين، فصارت فارغة من محتواها إلا بمقدار ما تنفع وما يقابلها من مادة، وما تجلبه من ربح مادي وتراكم للمادة.

وهناك مفهوم آخر من المفاهيم المركزية في فكر الحداثة هو مفهوم التقدم، حيث أُعطي له محتوى جعل منه حصان طروادة لكل ثائر على القيم، أو معارض للعُرف والمعروف والمتعارف عليه. فالتقدم مفهوم يتغنى به الحداثيون، ويجعلون العلامة عليه القطيعة مع التراث ومع السلف والتوجه نحو المستقبل ونشدان التغيير إلى ما لا نهاية.

وأهم جوانب التقدم، وأكثرها وضوحاً، هو التقدم المادي، وطبعاً في التعليم والتقنية والسيطرة على الطبيعة، والتحكم في مواردها.

والمفهوم الآخر هو العقلنة (Rationality)، حيث تقوم الحداثة على عقلنة كل شيء؛ الإنسان والطبيعة والتاريخ، وحتى الدين ذاته قد تمت عقلنته، فكل شيء تم إخضاعه للإدراك العقلي، ومناهج النظر العقلي. فكل ما يمكن عقله فهو داخل ضمن إطار الإدراك والتعامل، وبالتالي فهو واقعي، وحتى ما لم يكن قابلاً لذلك فقد تم إخضاعه، ويتجلى ذلك في جهود "كانت" و"ديكارت" و"هيجل" وغيرهم.

في الأخير، وإكمالا للحديث عن المنهج، فإن أهم تطبيقات هذا المنهج تتجلى في الثورة الفرنسية، والتي كان "روسو" أباها الأول، حيث رفعت شعار "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قِسّيس"، مما يعني الثورة على كل قديم، وعلى النظامين الكنسي والسياسي بصفة خاصة.

ومعروف ما كان للثورة الفرنسية من تأثير في العالم الغربي خاصة، من حث على تغيير الأوضاع القائمة.

كما أن من تطبيقات هذا المنهج، انتشار الديمقراطية الغربية، وسيادتها في أنظمة الحكم، واتخاذها منهج الحكم الوحد، وما تستلزمه هذه الديمقراطية من علمانية وعلمنة، وفصل بين الدين والدولة، وصراع التوازنات، وحديث عن حقوق الانسان وتغييب لحقوق الله.

ثم التقدم المادي الاقتصادي الكبير الذي حدث في الغرب، وما جره ذلك من استنزاف لموارد الطبيعة، وإتلاف لقدراتها، وتنميط الإنسان كأنه كائن ذو بعد واحد؛ هو البعد المادي، واعتبار التقدم الاقتصادي معياراً أوحدَ لقياس رفاهية وسعادة الانسان وتحقيقه لأهدافه في هذا العالم.

وكذلك من هذه التطبيقات نجد العلوم الطبيعية والاجتماعية والانسانية

التي تطورت بشكل مذهل لتحقيق مقولات التقدم والتحديث، ولكن وفق منظور مادي ورؤية اختزالية تختصر الإنسان وتطلعاته وأشواقه في أفق مادي محدود.

وختام الكلام

إن الحداثة ظاهرة ارتبطت بالوعي الغربي أصالة، ولها علاقة وطيدة بالتحولات التاريخية التي حدثت في الغرب، وهي بمفاهيمها إفراز طبيعي لحركة المجتمعات الغربية خلال التاريخ.

أما الحداثة خارج الغرب فهي تابعة في منهجها وفي تاريخها وفي نتائجها للحداثة الغربية؛ لأنها وليدة إشعاع الحضارة الغربية على العالم وبالتالي إشعاع فوضاه على بقية العالم بتعبير مالك بن نبي عليه رحمة الله، وهي بفعل تأثير الهيمنة الغربية على العالم، وعلى مصائر الشعوب، ومقاليد التاريخ، خلال هذ القرون الثلاثة الأخيرة. وهي من قبيل تقليد المغلوب للغالب حسب التعبير الخلدوني، والله أعلم.

***

حديث في الممارسة النقدية

موجة النقد:

الحديث عن النقد والعملية النقدية أصبح حديثا مكررا ومسموعا ما اجتمع اثنان، أو في أعمدة الصحف والمنابر الفكرية والثقافية، وحتى في المنتديات الاجتماعية والسياسية.

ففي كل مرة نقرأ أو نسمع أو نشهد كلاما جميلا عن النقد وضرورته، وضرورة الممارسة النقدية لأوضاعنا الحاضرة؛ في أفكارنا، وفي حركتنا السياسية، وفي آليات عملنا أفراداً وجماعات، وفي علاقاتنا الاجتماعية والسياسية، وفي مشاريعنا الثقافية والسياسية، وجهودنا كلها الناجحة منها والفاشلة.

هذا الحديث المكثف عن العملية النقدية يطرح عدة أسئلة عن مدى ضرورتها، ومفهومها، كما قد يثور التساؤل بإلحاح عن كنه وآليات هذه العملية، وتباين مدى حيويتها، من خلال السجال القائم باسم النقد والمراجعات، في شكل مناقبية تصل حد النرجسية، أو جلد للذات يصل حد كفران السعي والتشهير والانتقاص.

ففهم مكنون ومضمون هذه العملية، وفهم مدى ارتباطها بحركية الفعل الانساني، وتبيين المعايير التي تضع النقد والعملية النقدية في إطارها الصحيح، والامساك بالمنهج والآليات الصحيحة للممارسة النقدية، والتحرك وفق المستويات التي تتطلبها عملية بمثل هذه الحيوية والأهمية، كل هذه الأمور مقدمات لازمة للانخراط في عملية نقدية تستوعب كل مجال من مجالات

حركتنا اليومية، وتحقق ما يقصد إليه النقد من أهداف في البناء الاجتماعي والثقافي والسياسي والحضاري بشكل سليم، ومدافعة التشوهات التي دخلت في العملية النقدية فحولتها إما إلى مناقبية، وإما إلى كلام لا طائل من ورائه إلا البكاء على الأطلال وإيهام النفس بممارسة هذه العملية الحيوية في المراجعة والتصحيح المستمر.

فمثلا بعد حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وما تلاها من أحداث احتلال أفغانستان والعراق من قبل قوى الاستكبار العالمية وعلى رأسها أمريكا وبريطانيا وإسرائيل، وما شهدته كثير من دول العالم الاسلامي من أحداثا عنف ولا تزال، شهدنا موجة من النقد، وسيلا من هذه الممارسة، تنوعَ بين العمق والسطحية، كما تراوح بين اللغو ولوك الكلام وبين محاولات البحث عن أسباب هذه الأحداث المروعة.

وإن أي مرحلة تحول تاريخية أو اهتزاز تحدث في وسط ما إلا وتدفع أصحابه إلى البحث في أسباب هذا الاهتزاز أو هذا التغير.

وإن أحداث ١١ سبتمبر واحتلال أفغانستان والعراق دفعت بالعالم الاسلامي إلى مرحلة من المراجعات ونقد الأطروحات الجهادية أو الممارسة للعنف أو المطالبة بالتغيير السياسي أو الثوري، وانهال السيل العرم من محاولات فهم وتفسير الاهتزاز الكبير الذي عم العالم كله، والعالم الاسلامي بصفة خاصة، والعالم العربي بصفة أخص، واستنهضت الأحداث فينا كوامن الممارسة النقدية لكثير من تعبيراتنا الدينية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية، وأشكال التنظيم الفكري والاجتماعي والسياسي، واجتاحت الوسط الاسلامي حمى النقد، لتصل في بعض الأحيان إلى السب والاستهانة بمخزون الأمة الثقافي والحضاري، وبصورة أخص بمخزونها الفقهي والعقدي، كما وصلت في أحيان أخرى كثيرة إلى تصيد للأخطاء والإخفاقات، حتى لكأن المقصود

بالعملية النقدية محاصرة الآخرين بأخطائهم والدفع بهم لمزيد من الأخطاء وربما الخطايا. بل نمت اتجاهات نقدية وتقويمية عن البعض تعمل على الشطب الكلي والكامل على جهود الآخرين وأفكارهم وما بذلوه من جهود وتضحيات، وما قدموه من مشاريع، لا لشيء إلا لأن الغالب المحتل أو أن قوى الاستكبار العالمية غير راضية عنها.

ولهذا فإن وقفة منهجية تبدو ضرورية، لنقف مع أنفسنا أفرادا ومجموعات، وجمعيات ومؤسسات، وحكاما ومحكومين، لنبحث في كيفية بعث وتأسيس ومنهجية عملية النقد لتؤتي أكلها بما يخدم تحقيق حل مشكلاتنا في العالم الاسلامي ويخرجنا من بين فكي المناقبية وجلد الذات.

وإذا استطعنا أن نحدد معايير لعملية النقد بشكل منهجي وليس بطريقة عفوية، وإذا وقفنا مع أنفسنا وقفة منهجية نراجع فيها أنفسنا وما أصابنا وأصاب أعمالنا، فإننا سندرك أنه لا بد لنا من آلية منهجية نصحح بها أفكارنا وآراءنا وأعمالنا لتنسجم مع مراد الله في الخلق والأمر، هذه الآلية المنهجية هي النقد بما له من معايير واضحة.

بأن تكون عملية النقد تقوم على الموازنة بين "ما كسب" كل واحد منا وبين "ما اكتسب"، وأن تدخل عملية النقد في وعينا على أنها ضرورة الحركية كما أن للنقد منهجا ومعايير يحتكم إليها.

ولكن قد يتساءل أحدنا، أو أحد القراء أو المهتمين بقضايا التجديد الحضاري لأمتنا الإسلامية عن جدوى هذا التحديد

فإننا نقول أن الهدف من هذا التحديد كما سيتبين في الأسطر الموالية أنه يقصد إلى تحديد مفهوم النقد وإبعاده عن البكائيات أو التجريح أو جلد الذات، كما يهدف إلى جعل عملية النقد آلية أو ميكانيزم داخلي وليس مستوردا أو مفروضا، وإخراجه عن العفوية والخلط، فلا نريد نقدا اعتباطيا عفويا بل، يكون خطوة

منهجية متضمنة في عملنا اليومي وفي مناهجنا، وتحويله من مجرد ترف نظري إلى ممارسة سلوكية ذات منطق عملي له كثافة الواقع وحقيقة مجريات الأحداث بحيث يساهم عمليا وتطبيقيا في تغيير أفكارنا وانطباعاتنا وتوجهاتنا وفرزها وتقويمها وتوجيهها الوجهة المثمرة الدافعة بعملية التغيير إلى تحقيق أهدافها والمحافظة عليها. ولنأت إلى تفصيل تلك المحددات المنهجية لعملية النقد.

أولا: النقد موازنة ونفي:

من أهم معاني النقد في اللغة مما له صلة بموضوعنا أن النقد تمييز الجيد من الرديء، والخبيث من الطيب، والحسن من القبيح. وحتى يكون النقد إيجابيا فإنه يعمد إلى تثبيت الطيب والإيجابي والجيد والحسن، ويطرح جانبا كل خبيث ورديء وقبيح.

وكما يقول الأستاذ سلمان العودة في كتابه (لماذا نخاف النقد) أن النقد في الشرع يعني: معرفة الخطأ والصواب، ويعني: الثناء على الخير ومدحه، وذم الشر ونقده، سواء أكان هذا الخير أو الشر في شخص، أو كتاب، أو عمل، أو هيئة، أو دولة، أو جماعة، أو أمة، أو غير ذلك، وهذا هو المعروف لدى أهل العلم والإيمان أفرادًا. فهناك موازنة بين جهتين في الشيء أو الفعل، ثم فيه تثبيت لإحداهما ونفي للأخرى.

ومن هنا نقول أن عملية النقد في معناها الحقيقي ممارسة الملاحظة الدقيقة على الفعل البشري في أي صورة كان؛ فكرة أو ممارسة، ووزنه بالمعيار العلمي، وإعمال الموازنة بين سلبياته وإيجابياته، ثم محاولة الحفاظ على الإيجابي منه، وتثمينه، والدفع به إلى الاستمرار، والبحث عن كوامن الزلل والانحراف والغلو المنتجة للجانب السلبي لذلك الفعل وتفكيكها وعزل مفعولها، وتقويم ذلك الزلل حتى لا تحدث هزة في الفعل، وحتى يتكامل الفعل وينمو خاليا من كوامن الخلل، ويؤتي ثماره.

والنقد بالمفهوم الايجابي رصد للإنسان في دوائره المتعددة؛ فردا وجماعة، وتمحيص ما كسب وما اكتسب بالتعبير القرآني "لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت"، حيث يوزن الانسان أو الفعل بحسناته وسيئاته، ويوهب قليله لكثيره، فإذا ما له من إيجابيات أكبر مما عليه من سلبيات على المدى القريب والبعيد عدّ الفعل حسنا، وإذا كان على غير ذلك عدّ الفعل سيئا.

فالحركات الإصلاحية والدعوية والتجديدية، أو المسلمون بصفة عامة في حراكهم خلال التاريخ، للتحقق بالإسلام ولتحقيق حضارة الاسلام في الأرض، إنما ينبغي أن ننظر إلى ما تحقق على أيديهم او ما أخفقوا في تحقيقه على أنه تجربة قابلة للنقد والتمحيص كما علمنا القرآن الكريم من ذكر التجربة كلها وطرحها أمام بساط الموازنة، ثم نقوم بعملية اختزال الفعل المعتل والسلبي لنخرج في الأخير بحكم يتسم بالصدق والموضوعية، لنستفيد منها اعتبارها تجارب بشرية قابلة للخطأ والصواب، ونخرج بالتالي من ذهاني التقديس لما مضى أو جلد ذواتنا.

النقد ... ضرورة الحركة

هذا الميل إلى النقد والممارسة ما هي دوافعه؟ من أين تنشأ الرغبة في النقد؟ ومتى تكثر هذه العملية في الواقع؟

إن هذه الأسئلة الثلاثة يمكن الإجابة عنها من خلال فهم كُنْه عملية النقد، والتي كما أسلفنا أنها موازنة تهدف إلى المراجعة والتصحيح، والتواصل مع الكسب، والقطيعة مع الاكتساب بالمفهوم الذي ذكرته الآية السابقة الذكر (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت).

ولعل المراجعة تكون لما سبق، أي أن هناك انتقالاً من حال إلى حال، دفع هذا الانتقال صاحبه إلى التطلع والموازنة بين ما كان عليه وما هو عليه في حينه، بين ما قد فعل وبين ما هو فاعل، حيث إن هذه الحالة قد تكون انتقالاً في

الفكر أو الممارسة، ومن موقف إلى آخر. والتصحيح تدفع إليه عملية الانتقال، لرصد مسيرة الفعل واتساقه مع ما يجب أن ينجزه ومقارنته بما أنجز.

فالحركية المستمرة للفعل الإنساني تدفع به إلى المراجعة المستمرة والتصحيح الدائم عن طريق الموازنة ليضمن الوصول إلى أهدافه.

غير أن منحنى النقد تظهر نهاياته العظمى، ويكثر أثناء النقلات النوعية، والتحوّلات المفصليّة، والهِزات الكبرى، والأحداث التي تشكل تحولاً في المسار، كما حدث بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وبعد الحرب والاحتلال الأمريكي للعراق وغيرها من الأحداث.

فالإنسان فرداً كان أو جماعة عند شعوره بالإخفاق، أو اجتياز نقلة مرحلية، وفقدانه لبعض ما كان ينبغي أن يوجد يلجأ إلى التساؤل، والبحث عن الأسباب، وموازنة فعله واتساقه مع ما رسمه من أهداف نهائية أو آنية. فالميل إلى النقد ينشأ من عدم القابلية للإخفاق، والرغبة في التخلص من الفعل السلبي وآثاره، والنزوع نحو الكمال والرشد الإنساني المركوز في طبيعة البشر.

ويضرب لنا القرآن الكريم المثال في البحث عن تصحيح الوضع، والبحث أيضاً عن اكتشاف مكمن الزلل والخطأ أو الانحراف، وذلك في حديث القرآن الكريم عن غزوة أحد، حينما تساءل الصحابة -رضوان الله عليهم- عن سبب الإخفاق في هذه الغزوة بعدما انتصروا في بدر الكبرى، فيوجههم القرآن الكريم إلى البحث عن السبب في أنفسهم، وأن الزلل كان من اكتسابهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ (آل عمران: ١٦٥).

النقد... منهج ومعايير

في الوقت الذي نؤكد فيه على مفهوم النقد باعتباره موازنة وتصحيحاً بعد

المراجعة، وعلى ضرورة هذه العملية الحيوية باعتبارها قانوناً يصاحب الفعل الإنساني، يُنفى به الخبث ويستصحب به الأصيل من الفكر والممارسة، فإنه ينبغي التأكيد على أن العملية النقدية ليست عملية عفويّة اعتباطيّة فوضويّة هلاميّة لا فاصل بينها وبين غيرها من العمليات الأخرى إيجابية كانت أم سلبية.

فلكي تؤدي العملية النقدية أُكُلها، لا بد من وجود منهج صحيح، كما أنه ينبغي توفر معايير تضع الإطار الذي يوضح عملية النقد من التشهير، وعن النميمة، والغيبة، وعن الانتقاص، والتشويه.

ذلك أن سبّ الناس عامة والمؤمنين خاصة باسم النقد، والطعن في كرامة الناس وأعراضهم باسم النقد، ناتج عن غياب المعايير التي تشكل حواجز وضوابط تضمن عدم التجني على الآخرين بغير وجه حق.

فمنهج النقد يجب أن يفرق بين نقد الفكرة وبين نقد الممارسة، ونقد الفكر بمنهج نقد الممارسة أو العكس يُعدّ مغالطة كبرى. فعند نقد الفكرة من المنطقي والعلمي أن تنقد الفكرة في إطار تناسقها مع مقولاتها، ومع المقولات العقلية والعلمية الثابتة الصحة، وإثبات فساد فكرة يتجه أولاً إلى اكتشاف تناقض بنائها الداخلي، وغموض مضمونها، وعدم قدرة الفكرة على إعطاء الإجابات المقنعة على أسئلة الفكر والعقل، وفساد إحالاتها ومدلولاتها الفلسفية والعقائدية.

أما إثبات فساد فكرة بفشلها في الواقع فقد لا يصدق دائماً، إذ يدخل في إفشال الفكرة في الممارسة عدة عوامل، وليس عدم صلاح الفكرة في ذاتها فقط.

وهذا ما أشار إليه الأستاذ مالك بن نبي -عليه رحمة الله- في كتابه (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) حيث أشار إلى أن فعالية الفكرة ليس دليلاً على صلاحها، كما أن عدم فعاليتها في الواقع ليس دليلاً على عدم صلاحها، والخلط بينهما من قبيل الخلط المنهجي. كما أن نقد الممارسة ينبغي أن يرتكز

على ضوابط الممارسة الواقعيّة السليمة أكثر من أي مرتكز آخر.

ففي نقد التجربة الماركسية والفكرة الماركسية مثلاً خلط، حيث استدل على فساد الفكرة من خلال فشل التجربة، كما استدلّ المؤيّدون لها بنجاح الفكرة على نجاح التجربة قبل سقوط المعسكر الشيوعي.

وكان من المفترض أن تفنّد الفكرة الماركسية بنقد الفكرة ذاتها، واكتشاف تناقضها وفساد إحالاتها الفلسفية والعقدية، وغموض وقصور مقولاتها، من خلال نقد فكري مجرّد، كما كان من المفترض نقد التجربة الماركسية وفشلها من خلال رصد واستقراء تاريخ ممارسة التجربة لاستخراج أسباب الإخفاق التي قد يكون فساد الفكرة أحد أسباب إخفاق الممارسة، وربما لا يكون أدنى دور سلبي للفكرة في إخفاق التجربة والممارسة.

ويمكن تطبيق ذلك على دعوات الإصلاح في العالم الإسلامي منذ محمد بن عبد الوهاب، والأفغاني، ومحمد عبده، وابن باديس، وغيرهم، وصولاً إلى الصحوة الإسلامية المعاصرة على مستوى الفكرة والممارسة. كما يمكن تطبيق هذا النقد على القومية العربية وما دعت إليه من أفكار وما أنجزته منذ قيام الثورة العربية في بداية القرن الماضي، وكذا أي فكرة أخرى.

فالفصل بين مناهج نقد الأفكار، ومناهج نقد التجارب والممارسات، مقدمة صحيحة للحصول على الإجابات الصادقة والموضوعية عن الأسباب الكامنة وراء الإخفاق، والأسباب الكامنة وراء النجاح، هذا عن منهج النقد وطريقته.

وهناك الأمر المهم الآخر أيضاً والذي تبدو الحاجة ملحة إليه هو المعايير التي ترسم الإطار الضابط لهذه العملية الحيوية، لتحدّد مجال النقد عن غيره من أوجه الانتقاص والتشويه، وتفرق بين النقد وبين الغيبة والنميمة والتشهير.

فمثلاً في حياتنا اليومية، وفي سياق الحديث عن شخص أو مؤسسة أو فكرة أو تجربة أو هيئة ما هو المعيار أو المعايير التي من خلالها نعرف أننا نمارس الدور

الحيوي في المراجعة والتصحيح، بدل أن نكون في عداد الخائضين بدون محدّدات ضابطة، ولا هدف مقصود، ضمن أهداف النقد بمفهومه المتفق عليه كما سبق الذكر، فنقع عند غياب هذه المعايير فيمن ذمّهم الله تعالى في قوله عز وجل: (وكنا نخوض مع الخائضين)، أو فيمن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(الحجرات:١٢).

فما هي المعايير المحددة للعملية النقدية التي تضعها في إطار العمل الحيوي البنائي؟

لا شك أن المعيار الأول هو أن هذه العملية تتمّ وتنصبّ حول الفعل الذي هو كسب أو اكتساب، ولا تصل حدّ الطعن في الكرامة، ولا تنزل إلى الهجاء والذم للأشخاص لمجرد عدم انتمائهم لنفس الخيمة الأيديولوجية والفكرية، ولا مدحهم لمجرد أننا نحبهم، أو لأنهم من أنصار فكرتنا أو مذهبنا أو مدرستنا أو خيمتنا الفكرية والأيديولوجية.

أما المعيار الثاني فهو الهدفية، بحيث يكون النقد لا عن رغبة جامحة متأصلة دون سبب، بل تكون العملية النقدية عملية هادفة مقصدية ووظيفية، بحيث تؤدي وظيفتها في الموازنة ونفي الخبث والمراجعة والتصحيح، ولا تكون نابعة من شعاراتيّة مزيفة كأحد الطقوس يجب تأديتها هكذا جزافاً، دون إطارها الحيوي، ودون استحضار كُنهها.

أما المعيار الآخر فهو معيار يفك الارتباط بين النميمة والغيبة من جهة وبين النقد من جهة أخرى، حتى لا يقع أحدنا في الطعن، ولا يحبسه الخوف من النميمة ليعطل ممارسة عمله الحيوي، هذا المعيار يجعل موضوع النقد الإطار العام وليس خصوصيات الناس وقضاياهم الشخصية. وبعبارة أخرى، يكون موضوع النقد القضايا العامة لا الشخصية المستترة، وفي الشؤون العامة للأمة، وفي الفعل الذي يتعلق بالعموم، وليس ذلك الفعل الشخصي الخاص

الـذي يحتـاج إلى آليـة المناصحـة والنصيحـة بـما يجـب فيهـا مـن إسرار وكتـمان، وذلك خـلاف النقـد الـذي يُـمارس سراً وعلانيـة، وليـس فقـط ضمـن علاقـات حميميـة.

هـذه العمليـة النقديـة التـي يجـب أن تحـلّ محـل الـترداد الأجـوف للـكلام حـول العمليـة النقديّـة، ومـا يتخلـل الممارسـات النقديّـة مـن تمييـع لمحتواهـا ومنهجهـا، وخلـط بينهـا وبـين غيرهـا مـن المفاهيـم.

***

قيمة ما عندنا من أفكار

منذ أكثر من خمسين سنة، وعندما كان العالم كله يكتب عن سيادة الشيوعية وانتشارها في العالم، لاحظ مالك بن نبي ملاحظة مهمة جداً في سياق رصده للتحولات التي طرأت على العالم بعد الحرب العالمية الثانية، لقد ذكر ابن نبي في كتابه (مذكرات شاهد للقرن(أنه بعد الحرب العالمية الثانية "بدأ العالم يتأمرك"، وبّين أن العالم كله بدأ يقلد أمريكا في طريقة حياتها وفي أزيائها وفي أفلامها، ولم يسلم من ذلك الأوروبي أو غيره، كما أنه أشار في كتاب آخر له، وهو: (وجهة العالم الإسلامي) بأن الغرب مهما بلغ من تقدم فإنه فقد بريقه في العالم الإسلامي ولم يعد نموذجاً يقتدى.

والآن وبعد خمسين سنة، وبعد أن صار أمر أمركة العالم مشروعاً واضح المعالم، وصار ينتقده كل الناس غربيهم أو شرقيهم انتبهنا نحن المسلمين إلى خطر هذه الأمركة التي جاءت تحت غطاء العولمة.

والملاحظة التي أود تسجيلها هنا هو:

أننا نجهل قيمة الأفكار في زمانها، كما أننا نحتقر ذاتنا، وإلا كيف نفسر عدم اهتمام أي أحد بما نبه إليه مالك بن نبي منذ خمسين سنة؟ وكيف نفسر عدم عناية أي أحد بما قاله ابن نبي رحمه الله؟ ألأنه عالم مسلم؟ أم لأنه قال فكرته في سابق أوان لها؟ أم أن المناخ الثقافي في العالم الإسلامي تسوده ثقافة احتقار الذات، ولذلك لم يول كبير عناية لما قاله ابن نبي؟

والأمر في تصوري له وجهتان؛

أولاهـا: أننـا مازلنا نعـاني من مرض خطير يتمثـل في عدم تقديرنا للأفـكار وأهميتها في صناعـة التاريـخ، ولذلـك لم نسـتفد ممـا قالـه الرجـل، ولم يثـر فينـا أي قلـق أو انتباه فكري، يحفزنا على تأمل المسـألة، والنظر في نهاياتها، وسـياق هـذا التعجرف الأمريكي.

أمـا أخراهـا، فهـو الشـعور المنتـشر بـين النخبـة التـي تسـمي نفسـها مثقفـة، ويتمثـل هـذا الشـعور في احتقـار أنفسـنا، وشـعورنا بالدونيـة تجـاه الكفـار عمومـاً وتجـاه الغربيـين بصفـة خاصـة، حيـث إننـا صرنـا نشـعر بعـدم القـدرة عـلى الإبـداع أو التفـوق أو الاسـتعلاء الإيـماني الـذي يمنحنـا الثقـة في أفكارنـا وفي قدرتنـا عـلى التفـوق والعمـل المبـدع المسـتفيد مـن التجـارب الأخـرى والمتجـاوز لهـا.

ويحـضرني في هـذا السـياق تعليـق أحـد الكتـاب عـلى أحـد المقـالات الـذي كنـت قـد كتبتـه ذات يـوم بعنـوان "في مفهـوم الحضـارة العالميـة"، واستشـهدت بأحـد أقـوال ابـن نبـي فحمـل عـلي حملـة شـعواء، واتهمنـي بـأني أوالي أفـكاراً قديمـة قيلـت منـذ زمـن بعيـد، وينبغـي عـلي أن أنتبـه إلى الأفـكار الجديـدة السـائدة في الغـرب، وغـير ذلـك ممـا قالـه.

وأحسـب أن الرجـل يريـد أن ينهـاني عـن الحزبيـة الضيقـة أو الولاء للأشـخاص، وقـد غـاب عـن أخـي أن الاستشـهاد بأقـوال أهـل التخصـص في الموضـوع الـذي لهـم فيـه بـاع لا ضـير فيـه، بـل هـو ضابـط منهجـي مهـم في سـياق بنـاء الأفـكار. ذلـك أن العلـم حلقـات متصلـة تبنـى بعضهـا عـلى بعـض، ويسـتفيد اللاحـق مـن السـابق بشـكل تراكمـي. هـذا مـن جهـة.

ومـن جهـة أخـرى فـإن كثـيراً مـن المثقفـين المحسـوبين عـلى المسـلمين يضيقـون ذرعـاً عندمـا تستشـهد بأحـد رموزنـا الثقافيـة الإسـلامية، سـواء القديمـة أو الجديـدة، ويعـدون ذلـك تحجـراً وهروبـاً واحتـماءً بأفـكار قديمـة.

غـير أنهـم سرعـان مـا يرحبـون بانفتاحنـا وعلمنـا ونهجنـا لمـا نستشـهد بأحـد الغربيـين أو بالتعبـير الأدق لمـا نذكـر أحـد الرمـوز الفكريـة التـي تنتمـي عقيديـاً إلى

عـالم الكفـر، ومعرفيـاً إلى الجاهليـة. فـلا يـرون حرجـاً في الاستشـهاد بأحـد رمـوز الثقافـة الغربيـة، بـل يعـدون ذلـك نضجـاً مـن الكاتـب أو الباحـث؛ لأنـه اسـتطاع أن ينفتـح عـلى الآخـر، وأن يمـد معـه جسـور الحـوار والتثاقـف.

ولا شـك أن هنـاك خلطـاً منهجيـاً بالـغ الخطـورة في هـذه المسـألة، وذلـك مـن وجهـين؛ أولاً: أن علماءنـا في نتاجهـم العلمـي مهـما أصابـوا أو أخطـأوا فإنهـم أقـرب إلينـا منهجيـاً ومعرفيـاً، ومصادرهـم أوسـع مـن مصـادر الغربيـين، وآلياتهـم الفكريـة التـي أنتجـوا بهـا معارفهـم أقـرب إلى "مجـال التـداول الإسـلامي" وألصـق بالقيـم الثقافيـة الإسـلامية الأصيلـة، فإنهـم عـلى الأقـل قـد اسـتناروا واسـتفادوا مـن نبـع الوحـي والنبـوة، أي: القـرآن والسـنة، بينـما المفكـرون الغربيـون تهيمـن عليهـم القيـم الثقافيـة الماديـة اللادينيـة أو الدينيـة المحرفـة.

ثانيـاً: في سـياق تأصيـل الأفـكار، فإنـه مـن السـليم منهجيـاً أن الباحـث يسـتند أولاً عـلى تراثـه الثقـافي الـذي نشـأ فيـه وأشرب روحـه، ثـم بعـد ذلـك يتجـاوز إلى الـتراث الثقـافي الأجنبـي، ورائـده في ذلـك البحـث عـن الحكمـة أنـى وجدهـا فهـو أحـق بهـا.

ولذلـك فإننـا طالمـا لم نتخلـص مـن الدونيـة تجـاه الغربيـين، ولم نتخلـص مـن مـرض إهمـال أهميـة الأفـكار فإننا سـنبقى نـراوح المـكان ولا نثمـن أو نراكـم أو نطور أي خـبرة في هـذا المجـال، وإلا كيـف نتمكـن مـن التواصـل مـع سـلفنا مـن أهـل العلـم إذا لم نؤسـس تقاليـد معرفيـة ومنهجيـة في التعامـل مـع الأفـكار وأصحـاب الأفـكار الذيـن سـبقونا عـلى طريـق العلـم مـن أجـل أمتنـا ومـن أجـل ديننـا؟

وطالمـا اعترفنـا بمرجعيـة مدرسـة فيينـا أو فرانكفـورت أو بمرجعيـة هيجـل أو كيسـنجر، ولم نعـترف بمرجعيـة ابـن تيميـة أو ابـن باديـس أو ابـن نبـي أو مدرسـة دمشـق أو المدينـة أو الكوفـة أو فـاس أو الأزهـر فإننـا سـنبقى دائـماً مسـتضعفين فكريـاً، متخلفـين في بنـاء أنسـاقنا الفكريـة والثقافيـة الإسـلامية الأصيلـة.

وإننا سنبقى نهدر الطاقات؛ لأننا لم نصل بعد إلى حالة الاستعلاء الإيماني التي يأمرنا بها ديننا، والتي ينبغي بعثها ومنهجتها وتوظيفها في بعث الهمم، والاستعلاء هنا هو الاستعلاء الباعث على الرؤية المتزنة وليس الباعث على التكبر الأجوف الذي يفتقد الحكمة، وفي سياق التأصيل للأفكار فإن الاستعلاء يكون مفتاحاً لاكتشاف التميز في الأفكار بين المفكرين المسلمين والمدارس الفكرية الإسلامية، وبين المفكرين والمدارس الفكرية الأخرى.

فبينما تكون الأولى نبعها الوحي ومنطلقها مجال التداول الإسلامي وتوظف آليات ثقافية وعلمية إسلامية، فإن الأخرى لها مرجعيات كافرة أو مادية أو منحرفة، ولها سياق تاريخي وحضاري مغاير لما نتصوره ونتبناه من تصورات وقيم، وما ننتمي إليه من نسق تاريخي وثقافي وحضاري إسلامي.

وعليه فإن وعينا بهذه المفارقات يؤهلنا لأن نكون أكثر وعياً بقيمتنا وقيمة الأفكار عموماً، ويجعلنا أكثر نقداً للأفكار الوافدة، وأكثر إنصافاً لأنفسنا ولمفكرينا وعلمائنا ومدارسنا الفكرية القديمة والحديثة.

***

القراءات المأسورة والقراءات الانطباعية

بعض "الظلاميين" الجدد من دعاة التنوير المقلوب، يمارسون التعمية على القارئ، فيوهمونه بأنهم يقرؤون التراث الإسلامي وأنهم يتابعون كتابات المفكرين المسلمين الجدد، كما يقرؤون التراث الغربي قراءة نقدية. ولكن الحقيقة أن هذه لا تعدو أن تكون دعاوى لا أساس لها من الصحة، وفي أحسن الأحوال أنها دعاوى حالمة سرعان ما نكتشف أنها غير معبرة عن مضمونها.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن صاحب هذا المقال متحامل على "التنويريين"، ولم ير فيهم ما يجعلهم فعلا تنويريين يحاولون إخراجنا من ظلام التخلف. ولكن دعونا نتأمل قليلا في دعاواهم، وسنجد أن غالبيتهم الساحقة واقعون في أسر قراءات من درجة ثانية للفكر الغربي، وقراءات انطباعية من درجة ثالثة إذا صح التعبير للتراث والفكر الإسلامي، فكيف ذلك؟!

أسر القراءة من الدرجة الثانية للفكر الغربي:

المقصود بأن تنويريينا أسرى للقراءة من الدرجة الثانية للفكر الغربي، أن معظمهم يقرأ التراث الغربي مترجما وليس في مصادره الأصلية، كما أن معظمهم مازال حبيس قراءات غربية للفكر الغربي الأول، فهم يقرؤون القراءات، ويقرؤون ذلك بطريقة انتقائية وغير تاريخية، حيث أنهم لا يقومون بقراءة استقرائية للفكر الغربي تشمل مختلف مدارسه وتياراته الكبرى، ثم ممارسة النقد الذي يجعل المعطى الفكري الغربي موضوعا للمدارسة والتفكر والنقد والاستفادة، بل ينظرون إلى الفكر الغربي نظرة تقديسية جامدة لا تاريخية.

فهي قراءة تقديسية للفكر الغربي تقف أمامه خاشعة مسلمة، لا مسائلة متعلمة، وتأخذ بمقولات هذا الفكر كأنه الحقيقة النهائية المطلقة، التي ليس بعدها حقيقة. فتجد التنويري من أبنائنا يجعل من مقولات الفكر الغربي مرجعية نهائية غير قابلة للتجاوز أو المساءلة.

ولعل هذا ما أشار إليه أبو يعرب المرزوقي في مقدمة كتابه (السببية عند الغزالي) حيث أشار إلى أن المقلدة من المتفلسفة والتنويريين يتهمون الفكر الإسلامي بأنه نقلي، ونسوا أنه فكرهم هم أيضا نقلي رغم ادعائهم المعقولية، حيث أنهم يرجعون إلى منقول فلسفي يقفون أمامه مقدسين، في مقابل رجوع الفكر الإسلامي إلى منقول ديني بدعواهم. وهم بهذا يشنعون على غيرهم ما يقعون فيه هم. مع العلم أن أساس الدين النقل وأساس الفكر العقل، ولكن أي عقل مع من يقف مقدسا لنص فلسفي الأصل فيه المساءلة والنقد والجدل.

وهي قراءة جامدة لا تؤمن بالسياق التاريخي والحضاري للفكر، ولذا فإنها تنظر إلى مقولات الفكر الغربي كأنه حقائق متجاوزة للتاريخ، وأنها قابلة للتعميم دون نقد وتمحيص، مادامت صادرة من اساطين الفكر الغربي. وهم هنا يقفون أمام افكار هيجل وماركس وكانط ونيتشه وغيرهم موقفا لا تاريخي. وكأن أفكار هؤلاء المفكرين الغربيين لم يكن لها خلفية اجتماعية، وسياق حضاري وثقافي وفكري وديني ما، بل وكأنها افكار عالمية مبتدأ ومنتهى، دون حاجة إلى برهان.

ويحضرني هنا قول لحسن حنفي يؤكد فيه أن الفلسفة "ليست مجرد فكر بلا زمان ولا مكان، بلا زمان وبلا حضارة، إنما هي نظام فكري ينشأ في عصر، ويقوم به جيل، ويخدم مجتمعاً، ويعبر عن حضارة.. هذا الوضع هو الذي دعانا في حقيقة الأمر إلى التفكير في علاقة الفلسفة بالموقف الحضاري لجيل محدد هو جيلنا... هناك أبنية ذهنية ونفسية واجتماعية تظهر في كل عصر ولا

يمكن تعميمها إلا بقدر عموم النفس الإنسانية وإطلاق العقل البشري. وهو في الحقيقة عموم لا يأتي إلا بعد خصوص"[١].

القراءة الانطباعية للتراث الإسلامي من الدرجة الثالثة:

أما فيما يتعلق بالتراث الإسلامي والفكر الإسلامي، فإن"التنويريين" الذين أدخلونا في ظلام فقدان المنهج، فإنهم لا يكادون يطلعون على التراث في مصادره ولا الفكر الإسلامي في حركيته، وذلك إما جهلا به وعدم إحاطة بثرائه، وتنوعه، وكثافته، وآليات إنتاجه، ومضامينه الدينية والفكرية والحضارية، وإما تتم قراءته من خلال القراءة الاستشراقية له، فيأخذ"التنويريون" المنتج الاستشراقي المتعلق بتراثنا ثم يبنون عليه وجهات نظرهم؛ معرفيا ومنهجيا، فتتحول قراءتهم لهم من درجة ثالثة.

ولعل أخطر ما عاناه تراثنا الفكري، قديما وحديثا هو ذلك التزوير والتزييف الفكري -كما يقول الأعسم- الذي حاوله أشخاص تختلف ميولهم وغاياتهم وطرائق وسائلهم، وتتباين مواردهم ومصادرهم، أسهم في تكريسه وتثبيته المستشرقون الذين تنادوا إلى تقديم رؤية تقليدية ساذجة، تدّعي أن الفكر الفلسفي في حضارتنا ما هو إلا صورة ظلّية محنطة المعالم للفكر اليوناني ومدارسه المختلفة.

وأضاف"التنويريون" الجدد غربتهم عن هذا التراث، بأن توسلوا إلى قراءته من خلال المنهج والمقولات والمنتج الاستشراقي، فكان قراء قراءة انطباعية من درجة ثالثة لهذا التراث، لم يكلفوا أنفسهم فحص ونقد مقولات الاستشراق ولا النظر في مدى معرفة المستشرقين بآليات إنتاج التراث والفكر الإسلامي ولا بمنطلقاته التصورية وغاياته الحضارية.

(١) حسن حنفي،"موقفنا الحضاري"، الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول، ص١٣-١٤.

وليس المقصود -كما يقول الأعسم- هو الاندفاع نحو التراث والفكر الإسلامي بروح عصبية تحاول أن تضع الحواجز التاريخية لسد منظور الحاضر بغية إظهار الماضي كأنه الدرة المكنونة التي تحمل كل المقومات الطبيعية منذ وجدت البشرية على وجه الأرض. فإن تلك نظرة الفاشلين في فهم التراث، لأن النظرة إلى الماضي يجب أن تكون وسيلة لبناء الحاضر، لا سبيلا غائيا.

ويجب أن تكون قراءة ابستيمولوجية من الدرجة الأولى لا قراءة واقعة في أسر ولا ناتجة عن انطباعات، لا من درجة ثانية ولا ثالثة، وهذا مطلب صعب على "التنويريين" الذين ينطلقون من اللحظة الحداثية، معممين لها كأنها امتداد أزلي وسرمدي، في تجاهل عمدي أو عن غفلة للأزمنة الحضارية المختلفة والأعمار المختلفة للحضارات، التي تأبى التخلي عن خصوصيتها بدعوى العالمية، بل لا عالمية ولا كونية إلا من خلال خصوصية قوية منفتحة.

***

في الأفكار "الميتة" و"المميتة"

في طريق بناء نهضة حضارية إسلامية يشير مالك بن نبي أننا نواجه نوعين من الأفكار يساهمان في تعميق التخلف والتشويش على جهود إعادة البناء الحضاري الإسلامي على أسسه الوجودية الأولى، هاذين النوعين من الأفكار هما؛ الأفكار الميتة والأفكار المميتة (القاتلة).

حيث يقول في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) أن ما نعانيه من "اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أوفي ميادين السياسة، إنّما هو نتيجة ذلك الخلط من الأفكار الميتة، تلك البقايا غير المصفاة، ومن الأفكار المستعارة التي يتعاظم خطرها كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوروبا"[1].

فأول الصنفين هو الأفكار (المأصولة) التي أفرزها التطور الحضاري الإسلامي؛ أي أنها من داخل المجال التداولي الإسلامي، غير أنها إما فقدت مبررات استمرارها أو أنها هي في ذاتها مشوهة، بسبب عدم انسجامها مع الخط الأصيل للوجود الإسلامي وإصابتها بتشوه معرفي أو أخلاق، ولم يتم تصفية نسيج الأمة الفكري منه.

وفي هذا السياق يمكن أن نلاحظ من الأفكار الميتة ما يتم استدعاؤه من التاريخ لحسم معارك الحاضر والمستقبل؛ مثل استدعاء التقسيم الفرقي والكلامي للمسلمين، ومثل الحديث عن الخلافة بأشكالها التاريخية بدل مضمونها القيمي، ومثل الحديث عن غير المسلمين بطريقة كانت تصلح للقرن الثالث والرابع والخامس هجري مثلا، ومثل مشكلة تولي المناصب

(١) بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص٨١.

العامة بطريقة التغلب والانقلاب والتبرير لذلك بمقولات طاعة ولي الأمر.

وأما النوع الثاني فالأفكار المنقولة (المستوردة) التي تتميز بفعاليتها في سياقها الحضاري الغربي غير أنها تفتقد لفعاليتها حينما تنقل للسياق الحضاري الاسلامي، لأنها نقلت بطريق "التكديس" وليس بطريق "البناء" حسب تعبير مالك بن نبي، أو لأنها هي في ذاتها أفكار تحمل قيما مضادة للوسط المنقولة إليه؛ أي الوسط الإسلامي، فتحدث شرخا في الوعي وبلبلة في الفكر، وتشوها في التصور وتعميقا للتخلف وهدما للبناء الاجتماعي.

وفي هذا السياق نجد أفكار التنوير بحولتها الغربية من موقف مضاد للدين، وأفكار الحداثة بما تحمله من "عقلنة" متحيزة وعلموية ووضعانية، وأفكار التطور بما تحمله من مادية ودهرانية وإغراق في الكم، وأفكار العلمنة بما تتضمنه من الضدية لكل قيم متعالية ورفض للدين في الشأن العام ومصادرة على عقل الانسان بما يجعله رهين رؤية محصورة في الدنيوي، وأفكار التنمية المادية بما تتضمنه من استهلاكية وتنميط للانسان في الوجود الاستهلاكي المادي والرفاه البراني، والتقدم والمدنية والدولة الوطنية، وغيرها من القضايا، بمضامينها الغربية وبحمولاتها التاريخية الغربية وخصوصياتها الغربية، دون أدنى نقد لها وتمحيص لما تتضمنه من الكونية والمحلية.

والفرق بين الأفكار المميتة والأفكار الميتة كما يذكر مالك بن نبي في كتابه (مشكلة الأفكار)، أن الأولى "بها خُذلت الأصول؛ فكرة انحرفت عن مثلها الأعلى، ولذا ليس لها جذور في العصارة الثقافية الأصيلة"، بينما الثانية "فقدت هويتها وقيمتها الثقافيتين بعدما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها في عالمها الثقافي الأصلي"[1].

وكلا النوعين من الأفكار مهلك مدمر لأي محاولة لإنجاز حضاري يخرجنا من تخلفنا، ووجب علينا بناء جهاز مناعي للمجتمع وللأمة منهما، ليحمينا

(١) بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، ص١٥٣.

مـن أن تدخلنـا هـذه الأفـكار الميتـة والمميتـة في مـأزق الاهتـلاك أو في الاغـتراب في تاريخنـا أو في تاريـخ وحـاضر غيرنـا. والله أعلـم

***

هل من طريق ثالث بدل الاغتراب وعقدة النقص؟!

عند كثير من الشعوب التي سلكت طريق الحضارة والتنمية في عالمنا المعاصر كان التاريخ مصدر إلهام لها، وكانت تجارب الأمم الأخرى مصدر خبرة مفيدة دون الوقوع في عقدة النقص. بينما بقينا نحن نتراوح المكان والزمان، فلم نستطع اخذ العبرة من التاريخ، ولا تخلصنا من عقدة النقص والدونية تجاه الغرب تحديدا وغيره من الأمم بشكل عام. ولم نتعلم من تجارب الأمم التي اختارت طريقا ثالثا.

ولنا في هذا أمثلة كثيرة؛ كوريا الجنوبية، واليابان، وتركيا، وسنغافورة، وماليزيا، وغيرها.

تجارب أمم:

فاليابان، وبالرغم من هزيمتها الكبيرة في الحرب العالمية الثانية، فإنها لم تسكنها عقدة النقص تجاه الغرب وأمريكا تحديدا، كما أنها لم تدخل في غيبوبة تاريخية مع تاريخها الذي تعتز به، بل قام قادتها من السياسيين والعلماء ورجال المال والصناعة بعملية تركيبية كبيرة جمعوا فيها بين تقاليد الشعب الياباني وبين الاستفادة من التقنية والعلوم الغربية، مما حول اليابان خلال جيل أو جيلين إلى دولة كبرى ونموذجا للتنمية والنهضة.

أما كوريا الجنوبية فهي نموذج آخر مبهر، وظف تاريخه الديني والثقافي واستثمر التقنية المعاصرة، بالرغم من أنه قبل ستين سنة كان مجتمعا محطما عسكريا واقتصاديا وسياسيا، لكنه قام بالاستفادة من معطيات الحضارة المعاصرة، وحسم

خياراتـه الكـبرى، وابتـدأ مـن صياغة منظومـة تربويـة تعد من أقـوى النظـم التعليمية المعـاصرة، أثمـرت نهضـة وتنميـة صناعيـة وثقافيـة وتقنيـة كبـيرة، جعلـت هـذا البلد صغـير الحجـم، يفيـض بإنتاجـه وتكنولوجيتـه على العـالم كله.

أمـا ماليزيـا، فإنهـا عنـد خروجهـا مـن عبـاءة الاحتـلال البريطـاني، كانـت بلـدا متخلفـا منسـيا، يـرزح تحـت مشـكلات الـصراع العرقـي والدينـي الـذي تركتـه بريطانيـا، بفعـل جلبهـا للصينيـين والهنـود إلى أرض الملايـو، حتـى صـار الهنـود والصينيـون يشـكلون قريبـا مـن ثلثـي سـكانها، وينافسـون أهلهـا في كل مـا يملكـون. بـل أن الانسـان الماليـزي المسـلم تركتـه بريطانيـا فقـيرا أميـا، معـزولا في أرضـه، تابعـا لغـيره.

ولكـن النخبـة الماليزيـة، وخاصـة عـلى يـدي محاضـير محمـد وأنـور إبراهيـم وغيرهمـا، ومـن ثمانينيـات القـرن العشريـن، رسـمت لمجتمعهـا مـشروع مجتمـع تجـاوز بـه تلـك التمزقـات والصراعـات، وحـددت لـه الخيـارات الكـبرى، وتوجهـت بـه إلى تثمـين الانتـماء التاريخـي للشـعب الماليـزي المسـلم، مـع دمـج الأقليـات الصينيـة والهنديـة في مـشروع المجتمـع، وتوجهـت بـه إلى بنـاء تنميـة ونهضـة أخرجـت ماليزيـا مـن عصـور مـا قبـل التنميـة إلى أن تكـون أحـد النمـور الآسـيوية سريعـة التنميـة، وتتحـول إلى محجـة لكثـير مـن شـعوب العـالم في نمـوذج التنميـة، والسـلم الاجتماعـي في مجتمـع متعـدد الأعـراق والأديـان، وتتجـاوز كثـيرا مـن أعبـاء التاريـخ، دون الوقـوع في عقـدة نقـص تجـاه الغـرب والحضـارة المعـاصرة. بـل أن مـن شـعارات محاضـير محمـد، قائـد التنميـة في ماليزيـا، أنـه رفـع شـعار "انظر إلى الـشرق"، والمقصـود بـه التعلـم مـن تجربـة اليابـان وكوريـا، بـدل الوقـوع في أسر النمـوذج الواحـد للحضـارة الغربيـة.

وفي مطلـع هـذا القرن بـدأت تركيا تجربة تنموية رائدة، اسـتطاعت بـه تجاوز الإرث الأتاتوركـي عمليـا، ذلـك الإرث الـذي حـاول عبثـا اسـتبعاد هويـة الشـعب التركي

المسلم وعزل تركيا عن العالم الاسلامي. كما عملت تركيا - بقيادة أردوغان وزملائه- على الانفتاح على تاريخها الاسلامي دون الوقع تحت عبئ التاريخ، وانفتحت على الغرب، والاتحاد الاوروبي خاصة، دون الوقوع في عقدة النقص.

وهذا ما جعلها تستثمر إرثها التاريخي إيجابيا في التعبئة الثقافية والفكرية، وتستفيد من انفتاحها على الغرب بما وفره لها ذلك من علاقات سياسية واقتصادية وتقنية، أهّلها للتحول الاقتصادي والسياسي الكبير، الذي نقل تركيا من دولة هامشية ترزح تحت الديون والصراع العلماني على هوية الشعب التركي المسلم، إلى دولة تحتل المرتبة السابعة عشر في سلم التنمية العالمي، وتنافس الاقتصادات الكبرى، وتوجه طاقات مجتمعها نحو بناء تركيا متحضرة ناهضة.

وضعنا المضطرب:

أما نحن فصار التاريخ عبئا علينا، بل وقعنا في الاغتراب التاريخي، واستوردنا منه أفكارا "ميتة" -بتعبير الأستاذ مالك بن نبي- بعثنا فيها الحياة، فأوقعتنا في حروب التاريخ، بدل التوجه إلى المستقبل. كما وقعنا في عقدة نقص تجاه شعوب سبقتنا في التنمية والتحضر، فصرنا نجلد أنفسنا، وننكر أصلنا.

وكلا الوضعين مهلك، ويقود إلى الاغتراب في التاريخ وخوض معاركه، أو الاغتراب في حاضر غيرنا والوقوع في عقدة النقص نحو الغالب المهيمن على مجريات الحاضر اليوم، والوقوع في أسر مقولاته، ومنجزاته، ونظرته للكون والحياة، وطريقة عيشه.

ولهذا علينا أن نفكر جديا، في طريق ثالث، يخرجنا من حالة التبطل والاهتلاك الداخلي، والغيبوبة التاريخية، والتقمص لشخصيات حضارية غريبة عنا. بل علينا بهذا الطريق الثالث لنصوغ نموذج تنمية أصيل، ونهضة حضارية متميزة، تأخذ العبرة من التاريخ، ولا تتنكر للأصل الثابت، كما أنها تستفيد من الخبرة البشرية الحاضرة بكل انفتاح ودون عقدة نقص.

وهـذا يحتـاج إلى عمـل الخـبراء، وليـس إلى مواعـظ الخطبـاء ولا دجل السياسـيين، ولا مواقـف المرتزقـة، ولا إلى جلـد المتغربـين عـن هويتنـا الحضاريـة، ولا إلى هـروب إلى التاريـخ. فمتـى نعطـي القـوس باريهـا؟

***

الصراع الفكري يشتغل فينا

جاء النبي محمد ﷺ برسالة الإسلام وفي جوهرها مبدأ التوحيد، هذا التوحيد الذي في جوهره رؤية للعالم، ومبدأ عقدي إيماني يؤمن بالله واحدا أحدا إلها وربا للعالمين، كما أن هذا التوحيد يشكل مبدأ اجتماعيا ومبدأ معرفيا ومبدأ ثقافيا ومبدأ جماليا، نقل به محمد ﷺ الوعي الإنساني من مرحلة الانتماء القبلي والاستغراق فيه والوقوف عنده، إلى الانتماء الإنساني المنفتح على مختلف أصناف البشر.

وهذا لا يعني أن الإسلام جاء لنفي الانتماء الطبيعي للشعوب والقبائل، وإنما جاء الإسلام ليوجه هذا الانتماء الطبيعي حتى لا يتحول غاية في ذاته، وإنما يبقى وسيلة لما هو أرفع، ولما يحقق رسالة الإنسان في الوجود، ولذلك رفع وعي الإنسان إلى أن هذا الانتماء ليس معيارا للتفاضل والتميز، بل المعيار يبنى على جهد الإنسان ووعيه، إنه التقوى؛ والتقوى في جوهرها موقف واع تجعل الإنسان يؤمن بمبدأ معين وينسجم معه.

ولهذا جاء رسالة محمد ﷺ، لتفكيك سبل التنازع كما يقول ابن خلدون، ويمنع التفاضل والتنافر بين هذه الانتماءات الطبيعية، ويوجهها للتكامل والتراحم، فأسس بذلك أول حضارة لا تقوم على قوم معينين أو شعب معين، بل شعوبا وقبائل متعددة، فكانت هذه الامة وهذه الحضارة لا يمكن ان تنسب للعرب أو العجم، بل تنسب للإسلام.

فالإسلام ألف بين قلوب الناس في أمة واحدة، ونقل الناس من الانتماء القبلي المتفاضل المتنافر إلى الانتماء القيمي المتكامل المتراحم. لكن في عصرنا

الحديث، ومع تخلي المسلم عن أداء دوره الحضاري وتوقفه عن الاجتهاد في إبداع الحلول وتحقيق الإنجاز في الواقع، غلب علينا المنطق الغربي الحديث القائم على الانتماء العرقي العنصري والإعلاء من شأنه.

فكانت موجة الاستعمار الغربي الحديث للعالم الإسلامي، التي فككت الرابطة الإسلامية بين مكوناته التاريخية من الشعوب والقبائل المختلفة، وأحلت محلها الانتماء القومي الضيق، ونشأ بفعل هيمنة ثقافة الغرب الاستعمارية، وبفعل هيمنته عقودا من الزمن على مصائر شعوبنا، نشأت طبقة من أبناء المسلمين تبنت الرؤية الغربية للحياة، وتبنت مقولات الفكر الغربي، أضف إليها أن الأنظمة الحاكمة في معظم بلداننا بعد انزياح موجة الاستعمار التقليدي كانت نخبا حاكمة بأيديولوجيات غربية، لا تراعي مقومات الانتماء الحضاري الإسلامي لمتنا، إضافة إلى الاستبداد الذي قامت عليه هذه أنظمة، فلم تفسح أي مجال لنمو الأفكار نموا طبيعيا، ولا مجال للحريات الطبيعية للناس في أوطاننا.

ونشأت تيارات عنصرية وإيديولوجية، تعمل على استكمال مشروع الاستعمار التقليدي بطرق حديثة، فتعمق شرق الاغتراب الحضاري الذي تعيشه أمتنا بفعل ذلك. وفي بلادنا جاء "أولاد فرانسا" الذين تربوا على عينها قبل الاستقلال وبعده، وأرادوا أن يفرقوا بين مكونات مجتمعنا التي ألف بينها الإسلام، وتمزيق من ألف الله بين قلوبهم في هذه البلاد الطيبة.

والحمقى -من بيننا- الذين يخوضون حروبا طاحنة بين بعضهم البعض سيحدث لكم مثلما حدث لملوك الطوائف؛ كانوا يقاتلون بعضهم، بينما العدو يأكلهم واحدا تلو الآخر، حتى لم يبق منهم أحد بعد ثمانية قرون من الحضارة الإسلامية في الأندلس.

ويد الله التي جمعت بين أبناء يعرب وأبناء مازيغ في وحدة إسلامية واحدة

على أيدي أجيال من أبناء الإسلام والجزائر، منذ أول ما دخل الإسلام هذه الأرض، مرورا بأجيال من الأحرار إلى غاية اليوم، يأتي اليوم أولاد فرنسا ويعملون فينا مبضع التفرقة العنصرية، بالرغم من أن هذا التنوع علامة ثراء وقوة، كما كان عبر التاريخ، لكننا بجهلنا سنحوله إلى عامل تمزيق.

وخاصة أن النظام الفاسد المفلس يشتغل به ليضمن استمراريته وهيمنته على مصير شعبنا، ومواجهة كل تغيير يجعل الشعب يختار من يحكمه بحرية وشفافية واختيار حر. ولهذا فإنه يستمر في تذكية مثل هذه الصراعات الوهمية التي تحولت إلى صراعات حقيقة ستخرج سفينة الوطن وتغرقنا جميعا.

إن قوى الصراع الفكري الاستعماري بامتداداته الخارجية والمحلية تعمل على إعاقة طريق النهضة بكل السبل، ومن أخطر هذه الطرق التي يستخدمها الصراع الفكري هي أن يوجه قوانا للداخل وإحداث التناقض بينها، بل وتذكية الصراع بينها إلى درجة أن تفكيك المجتمع، وتضارب قواه التاريخية.

وهذا ما يحدث مع بلادنا، حيث عمل الاستعمار ومراكز قواه إلى إغراق المجتمع بصراع هوياتي مستحدث يقوم على النفي والنفي المضاد، مع تغلغل وهيمنة أنصار الفكرة الغربية التغريبية في كل دواليب الإدارة والحكم، مع فتح باب التيارات الوافدة شرقيها وغربيها لإذكاء الصراع، حتى لا تتوحد قوى هذا المجتمع وتتوجه نحو إحداث نهضة من خلال صياغة مشروع مجتمع يتبنى الانتماء الحضاري الإسلامي للمجتمع، ودمج مكونات المجتمع التاريخية في عملية ديناميكية تزيده قوة وتنوعا وليس تفكيكا ونفيا متقابلا.

إنها مهمة النخبة الواعية التي تتبنى الانتماء الحضاري للمجتمع الجزائري في أن تكون حاضرة في هذه اللحظة التاريخية الحرجة لمجتمعنا، لتفتك المجتمع وهويته من التلاعب الماكر من نخب الانتداب والولاء الاستعماري، كما تختطفه من الانتماءات المرضية للتاريخ، وتتوجه به نحو المستقبل.

إذا لم تبادر نخبة المجتمع من علماء ومفكرين ومثقفين وقيادات سياسية واجتماعية، إذا لم تبادر هذه النخب إلى تفكيك خيوط مؤامرة الصراع الفكري، وإبطال سحرها، فإن سحر الصراع الفكري سيجلب لنا المستعمر القديم والجديد، وحينها لا ينفع الندم.

اتقوا الله في وطنكم، واتركوا معاركم الوهمية، واتجهوا للمستقبل، لبناء وطن يعيش فيه الجميع.

***

المؤلف: الدكتور بدران بن لحسن

يعمل حاليا أستاذا مشاركا باحثا في مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة قطر.

يحمل شهادة الدكتوراه في دراسات الحضارة والفلسفة من جامعة بوترا ماليزيا، وماجستير مقارنة الأديان والفكر الاسلامي من الجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا.

عمل سابقا منسقا لبرنامج مقارنة الأديان، وأستاذا مشاركا في مقارنة الأديان وفلسفة الدين والدراسات الاسلامية، في برنامج مقارنة الأديان، بكلية قطر للدراسات الاسلامية، جامعة حمد بن خليفة (٢٠١٣-٢٠٢٠)، وأستاذا مشاركا بقسم الدراسات الاسلامية بكلية الآداب جامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية (٢٠٠٩-٢٠١٣). وأستاذا مساعدا ثم أستاذا مشاركا في قسم الفلسفة جامعة باتنة (٢٠٠٥-٢٠٠٩)، ورئيس وحدة البحوث في متحف الآثار والفنون بماليزيا (٢٠٠٤-٢٠٠٥)، وباحثا مساعدا في الجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا (١٩٩٧-٢٠٠٢).

مهتم بالبحث والتدريس في مجالات فلسفة التاريخ والحضارة، والدين والعلوم الاجتماعية، ومقارنة الأديان وفلسفة الدين، والدراسات البينية، وتاريخ ومناهج العلوم الاسلامية.

حاصل على جائزة لمياء الفاروقي للتفوق الأكاديمي التي تنظمها الجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا والمعهد العالمي للفكر الاسلامي سنة ١٩٩٧.

ترأس الجنة العلمية لقسم الفلسفة بجامعة باتنة الجزائر ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩، وعضوا للمجلس العلمي لكلية الآداب، جامعة باتنة في ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩. وترأس لجنة الدراسات العليا وعضويتها في قسم الدراسات الاسلامية، جامعة الملك فيصل بالأحساء، السعودية ٢٠١٠-٢٠١٣، وعمل عضو لجنة الاعتماد القانوني في مشروع الاعتماد المؤسس بالجامعة نفسها، وعضو لجنة الاعتماد الأكاديمي في عمادة رئاسة جامعة الملك فيصل بالأحساء، السعودية ٢٠١٠-٢٠١٣.

وعضو في لجنة الشؤون الأكاديمية (٢٠١٥-٢٠١٧)، وعضو اللجنة الاستشارية لمركز الأخلاق والتشريع (٢٠١٤-٢٠١٨)، بكلية الدراسات الإسلامية جامعة حمد بن خليفة. وعضو المجلس العلمي للمركز الوطني للبحث في العلوم الاسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر من١ يناير ٢٠١٦.

مدير المؤتمر العالمي عن مالك بن نبي وأسئلة النهضة، ومنسق مشروع النهضة ٢٠١٩-٢٠٢٠. مؤسس ومدير برنامج ماجستير فلسفة الحضارة، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة باتنة؛ أول برنامج دراسات عليا في فلسفة الحضارة في الجامعات الجزائرية، في ٢٠٠٩. أشرف على رسائل ماجستير ودكتوراه، وشارك في مؤتمرات علمية دولية في أكثر من ٤٠ مؤتمر دولي ووطني، ونشر أربعة كتب (٦)، وأكثر من ٥٠ بحثا علميا محكما، ومقالات عديدة في الصحف والمجلات ومواقع الانترنت. وعضو هيئة تحرير وتحكيم كثير من المراكز والمجلات الأكاديمية.

فهرس

تقديم ٥
تقديم الطبعة الأولى ٧
الحاجة إلى استعادة مركزية القرآن في صناعة الوعي ٩
مركزية القرآن في إنتاج المعرفة ١٥
القرآن ودوائر الإصلاح ١٩
المحاور الثمانية لعلوم صلاح الإنسان في القرآن ٢٣
الدين سنة كونية وثابت من ثوابت التاريخ الإنساني ٢٩
﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾: تنوع التجربة الدينية واختلافها ٣٥
منهجية التصديق والهيمنة في القرآن ٤١
مقاصد الشريعة تحقيق لأخلاقية الرؤية الإسلامية ٤٧
مقصد الحرية تحقيق لمركزية الإنسان من المنظور الإسلامي ٥٣
أهمية المجتمع (الأمة) وإعادة الاعتبار للنظام الاجتماعي ٥٧
حاجة المسلمين إلى الفعالية ٦١
في الحاجة إلى الأصالة والفعالية ٦٥
الفعل الحضاري.. يحتاج منطقاً عملياً ٦٩
توجيه القرآن إلى فهم سنن التاريخ والواقع ٧١
الدعوة ... وإبل المئة ٧٥
في الحاجة إلى حماية الإسلام والمحافظة على أبنائه ٧٩
حبّ النبي باتباع سنته واستلهام سيرته ٨٣

بل نبي الرحمة والمحبة والسلام ٨٩
يا شبابنا.. من قدوتكم؟ ١١١
الوسطية رؤية ومنهج وليست تلفيقاً ١١٥
في جوهر المرجعية الإسلامية ١١٩
القيم بين العالمية الإنسانية والخصوصية الثقافية ١٢٣
الشهادة على الناس في عصر تزاحم القيم ١٢٧
بعث الحضارة الإسلاميّة من جديد... دور النُّخبة ١٣١
العولمة: الظاهرة والتحديات ١٣٧
العولمة: وعي الذات سبيل النجاة ١٤٣
الفكر الإسلامي وتحديات العولمة ١٤٩
تحدي النموذج المعرفي الغربي والحاجة إلى رفع التحدي -١ ..... ١٥٩
تحدي النموذج المعرفي الغربي والحاجة إلى رفع التحدي -٢ ..... ١٦٣
من أجل حِوار حضارات لصالح البشريّة ١٦٧
ما المنهج في فكر الحداثة؟ ١٧٣
حديث في الممارسة النقدية ١٨٣
قيمة ما عندنا من أفكار ١٩٣
القراءات المأسورة والقراءات الانطباعية ١٩٧
في الأفكار "الميتة" و"المميتة" ٢٠١
هل من طريق ثالث بدل الاغتراب وعقدة النقص؟! ٢٠٥
الصراع الفكري يشتغل فينا ٢٠٩
المؤلف: الدكتور بدران بن لحسن ٢١٣